المؤتمر العلمي الدولي الأول
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج

بحث مقدم للمؤتمر بعنوان :

" تصوير الذات في ديوان " خواطر الحياة " ؛ للشاعر الشيخ /محمد الخضر حسين- ت ١٣٧٧هـ دراسة بلاغية " .

إعداد

د/ عبدالرحمن دخيل أحمد

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

" تصوير الذات في ديوان " خواطر الحياة " للشاعر الشيخ / محمد الخضر حسين ت : ١٣٧٧ هـــــ " دراسة بلاغية " .

اسم الباحث : د / عبدالرحمن دخيل أحمد بطيخ .
الوظيفة : مدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية للبنين فرع جامعة الأزهر بجرجا .
الجنسية: مصري.
البريد الإليكتروني : drabdrohman@gmail.com
رقم الهاتف / ٠١١١٨٦٩٦٦٨٨

ملخص الدراسة :

وتهدف هذه الدراسة إلي الحديث عن ظاهرة الذاتية في شعر أحد أبرز علماء الأزهر الشريف ، وهو الشيخ / محمد الخضر حسين المولود في تونس عام ١٢٩٣ هـــــــ ، المتوفى في القاهرة سنة ١٣٧٧ هـــــــــ في ديوانه " خواطر الحياة " ، فلقد أجاد الشيخ في وصف خلجاته النفسية ومشاعره الرائقة في قالب لفظي غاية الرقة والجمال ، فبرع في تصوير مشاعره بصورة فنية تجسد رؤية ثاقبة للحياة من منظور إسلامي ، فقد استطاع الشاعر أن يبين للقارئ عمق شاعريته ، وروعة إبداعه ، ودقة ملكته البلاغية من خلال ألفاظ فصيحة ، ومعان عالية
، وأساليب بلاغية مناسبة لمقاماتها مراعية لحال سامعيها ، فجاءت جل قصائده تعبيرا صادقا عن نفس مفعمة بالإيمان بالله ، واثقة في سعة رحمته ، محاطة بالأمل في نيل رضاه ،والتنعم في جنته ..فلم تسيطر " الأنا " على نفس الشاعر .

ومن أهم نتائج هذه الدراسة : دقة الشاعر في وصف مشاعره النفسية ، وأحاسيسه الذاتية ، بصورة مرهفة تأخذ بالألباب ، وتستولي على عقول السامعين ، فجاءت أوصافه لنفسه وذاته، مناسبة للسياق تمام المناسبة ، ملاءمة للمقام ، متوافقة مع الغرض المؤم في كل قصيدة ، مراعية لأحوال المخاطبين ، كاشفة عن الغرض التي سيقت من أجله ، بأسلوب بلاغي راق بديع؛ لذلك لا تجد وصفا لذاته قلقا أو نابيا في موضعه – على حد علمي – إلا قليلا .. والله أعلم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، وأنزل على عبده خير كلام قرآنات يتلى آناء الليل وأطراف النهار ، والصلاة والسلام على خير من نطق بالعربية إمام المصلحين ، ورسول الله الأمين ، وسيد الناس أجمعين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فإن الشعر ديوان العرب ، سِجل حاضرها ومستقبلها ، سُطر فيه تاريخها بكل ما فيه ، وحفظ به تراثها من عبث العابثين وكيد الكائدين ، ولقد شاءت إرادة الله – تعالى – أن يكون الأزهر الشريف هو الحارس الأمين على تراث الأمة الإسلامية سواء ما تعلق منه بالعلوم الشرعية أو العربية ، فساهم علماء الأزهر – ولا يزالون – في نشر مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ، وتعليم العلوم الشرعية والعربية ، ونشر القيم والفضائل الأخلاقية التي حث عليها الحق – سبحانه – في القرآن الكريم ، متخذين من النبي – صلى الله عليه وسلم – في ذلك أسوة حسنة ، فغرسوا علوم الشريعة واللغة وآدابهما في قلوب الناس ما استطاعوا لذلك سبيلا ، وبذلوا من أجل تحقيق تلك الغاية كل غال ونفيس .. ولما كان الشعر أول مسلك من مسالك الإعانة على فهم كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – كان لشيوخ الأزهر وعلمائه دور بارز في نشره وتعليمه ، وحث الطلاب على تنمية مواهبهم ، والسمو بقرائحهم متى وجدوا لديهم الملكة الأدبية الجادة .. ومن نعم الله – تعالى – على الأزهر أن يكون من بين علمائه أدباء وشعراء ملكوا ناصية البيان ، فطوع الله اللغة على ألسنتهم فصاروا عباقرة في الشعر يشار إليهم بالبنان ، ومن فضل الله علي ومنّه أن وفقني لاختيار هذا البحث : تصوير الذات في ديوان " خواطر الحياة " ؛ للشاعر الشيخ / محمد الخضر حسين

ت١٣٧٧هـــــــــ دراسة بلاغية ، وهو من شيوخ الأزهر السابقين الذي شهد الناس لهم بالصلاح والإصلاح – رحمة الله عليه – وذلك للمشاركة به ضمن فعاليات المؤتمر الدولي الأول لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات فرع جامعة الأزهر بسوهاج ، والذي سيعقد بمشيئة الله – تعالى – ١، ٢ / ٣ / ٢٠٢٢ م" ، والبحث الذي تقدمت به يقع تحت البند الرابع " جهود مشايخ الأزهر في العلوم الشريعة والإنسانية " من المحور الثالث من أعمال المؤتمر : " الأزهر الشريف ودوره في الإصلاح والتجديد " .

والهدف من هذه الدراسة : تجلية مواطن تصوير الشاعر لذاته ، ومدى دقته في انتقاء الأساليب البلاغية الملائمة لتصوير سماته الشخصية ، وهمومه وآلامه ، وقبس من أحلامه ، والكشف عن ملامح شخصية الشيخ محمد الخضر حسين ، وبيان أثر النشأة الإسلامية في تكوينه الفكري والنفسي .

ووقع اختياري على نتاج الشيخ ؛ لأنه من الأدباء النبلاء الذين جمعوا بين الأخلاق والدين ، ومن ثم كان شعره علامة دالة على جودة الشعر الأزهري وتمايزه عن غيره بما يحوي من قيم ومُثل عليا تسمو بالإنسانية ، وتغرس فيها الأخلاق وتُقوي الوازع الديني لدى أفرادها .

إشكالية الدراسة :

الدراسة تجيب عن سؤال يطرح نفسه ، كيف صور الشيخ محمد الخضر ذاته من خلال نتاجه الشعري ؟ وما هي أهم ملامح شخصيته ؟ وكيف وظف الأساليب البلاغية لرسم صورته الذاتية في قلوب السامعين من خلال شعره ؟ وما أثر المبادئ الإسلامية في سلوكياته ؟ .. وذلك حثا لأبناء الأزهر وغيرهم أن يحذوا حذو الإمام محمد الخضر في السلوك والأخلاق فينهض المجتمع بهم ، وتتقدم الإنسانية .

وتكمن أهمية الدراسة : في أنها تلقى الضوء على النتاج الأدبي لشيخ فذ من شيوخ الأزهر وهو الشيخ محمد الخضر ، مما يثري الدرس البلاغي بفيض من اللمحات البلاغية من خلال تجلية مظاهر تصوير الذات عنده وبيان أثر التعاليم الإسلامية في شعره ، وكيف أنها أثرت على سلوكه وأقواله وتكوينه النفسي ، فجاء شعره لمحة صادقة تفيض بمعاني الحب الإلهي ، والسعادة الروحانية .. وهذا يسهم بدوره في النهوض بالدراسات البلاغية من خلال التفحص في نتاج العلماء المخلصين الذين تولوا مشيخة الأزهر الشريف عبر العصور .

كما أن ظاهرة تصوير الذات في شعر الشيخ ، كانت لافتة للنظر لما تميزت به من شموخ وعزة بقيم الإسلام ، بعيدة عن تملك " الأنا " في نفس الشاعر ، فكأن شعره حكمة بالغة يصدع بها جبين الزمن ، ليذكر الناس بما هم فيه من غفلة عن دين الله .

ومن أهم الصعوبات التي واجهتني : ندرة الدراسات الأدبية حول شعر الشيخ – على حد علمي – فلم أعثر على دراسة بلاغية متخصصة تناولت شعره بالبحث والتمحيص سوى تعليقات يسيرة لشارح الديوان .

أما عن منهجي في الدراسة ، فيتلخص في الآتي :

أولا : اعتمدت على المنهج التحليلي التكاملي ، فاستقريت أبيات الديوان ، وحصرت منها ما يتعلق بحديث الشاعر عن نفسه وذاته ، وتصويره لمشاعره النفسية ، وما يجيش في صدره من معان سامية تجسد لنا شخصيته الفذة ، وتفرده في وصف الذات بأسلوب سوي بعيد عن الولع بالنفس والهيام بها ،وآثرت انتقاء بعض النماذج من شعره التي كانت بمثابة وصف دقيق لذات الشاعر، وصورة واقعية لنفسه وما تحمله من آمال وأحلام ، وهموم وأحزان ، ثم قمت بتقسيم هذه النماذج إلي عدة مباحث ، فبدأت بما يتعلق بوصف الشاعر لسماته الشخصية ، وصفاته الذاتية ، وانتهيت بوصف الشاعر لأحزانه وآلامه، ممهدا لكل مبحث

بمقدمة موجزة عن تمايز الشاعر عن غيره من الشعراء .

وقد اعتمدت في ذلك على نسخة محققة من " ديوان خواطر الحياة للإمام محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب "، بعناية ابن أخيه المحامي علي رضا الحسيني ، طبعة / دار النوادر ، سورية – الكويت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـــــــــ ، ٢٠١٠م ، والديوان يقع في مائتين وتسع وخمسين صفحة ، واشتمل على مائة وثلاثة وتسعين قصيدة ومقطوعة شعرية ، تنوعت أغراضها البلاغية ما بين مدخ وفخر ، ووصف ، ورثاء ، وهجاء ..وغير ذلك من أغراض أدبية .

وتحدث الشاعر عن تصوير لذاته في ديوانه في خمسين موضعا ما بين قصيدة ومقطوعة شعرية ، وقد تناولت الدراسة ستة مواضع منها: أربع قصائد مستقلة: الأولى : جاءت بعنوان " صيانة النفس عن التملق " ، والثانية بعنوان : " المحبة الصادقة " ، والثالثة تسمى : وجه الموت غير كئيب ، والرابعة " الصداقة وحرية الرأي ، واثنتين من المقتطفات الشعرية من قصائد متنوعة ، الأولى منها كانت جزءا من قصيدته " بكاء على قبر " والتي رثا فيها والدته ، والثانية كانت جزءا من قصيدة بعنوان " العيد في برلين " .

وقد راعيتُ في اختيار الأبيات محل الدراسة بروز ظاهرة الحديث عن الذات تماما في عدة سياقات متباينة ، كما أن هذه القصائد تمايزت بأنها كشفت اللثام عن أهم مظاهر تصوير الشيخ لذاته ، ولما كان البحث مقدما ضمن أعمال المؤتمر الأول لكلية الدراسات الإسلامية والعربية بسوهاج ، وكان الوقت ضيقا للغاية ، اكتفت الدارسة بهذه القصائد لأنها تفي بالغرض المراد .

أما عن خطة البحث فقسمته إلى أربعة مباحث سبقتها مقدمة وتمهيد :

أولا : المقدمة : وذكرت فيها أهمية الموضوع ، وأهدافه ، وإشكالية البحث ، ومنهجه وطريقة السير فيه .

ثانيا : التمهيد : وجاء في مطلبين :

الأول : الشيخ محمد الخضر حسين " نشأته وحياته " .

الثاني : تصوير الذات " الضابط والدلالة " .

ثالثا : المباحث :

المبحث الأول : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن افتخاره بنفسه : وذكرت فيه ثلاثة نماذج شعرية ، صور في الشاعر ذاته مفتخرا بذاته ، وسماته الشخصية ، ووقع اختياري على النماذج التي تمايزت بدقة تصوير الشاعر لذاته .

المبحث الثاني : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن نفسه أثناء مرضه : واشتمل هذا المبحث على نموذج واحد من أبيات الشاعر ، وفق فيه الشاعر لتصوير زفراته النفسية أثناء مرضه .

المبحث الثالث : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن آماله وأحلامه : وذكرت فيه نموذجا لتصوير الشاعر لآماله ، وأحلامه ، وأشجانه الذاتية .

المبحث الرابع : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن همومه وآلامه : وتحدثت فيه عن نموذج واحد لإمعان الشاعر في تصوير خلجاته النفسية من خلال الحديث همومه وآلمه .

رابعا : الخاتمة : وذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ، وذيلت البحث بفهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

وبعد ، فهذا جهدي المتواضع ، وأرجو من الله – تعالى – القبول والإخلاص ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

التمهيد :

ويشتمل على مطلبين : الأول : الشيخ محمد الخضر حسين " نشأته وحياته " .

اسمه ونسبه :

شاعرنا هو المصلح الإسلامي الإمام الأكبر محمد الخضر حسين – رضوان الله عليه – ولد في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها " نفطة " [1] في ٢٦ من رجب سنة ١٢٩٣هـــــ ، الموافق ١٦ من أغسطس سنة ١٨٦٧م ، وهو من أسرة كريمة أصلها من الجزائر تنتمى إلى أسرة (الأدارسة) التي كونت دولة المغرب ، وعائلة الحسين التي ينتسب إليها الشيخ .. ماجدة في حسبها ونسبها تتصل بالشرف النبوي الكريم ، وشقيقاه المكي وزين العابدين من أكابر العلماء الذين أثروا المكتبة العربية بمؤلفاتهم ، وأمه تنتمي إلى أسرة فاضلة مشهورة بالعلم والتقوى والصلاح ، فهي كريمة الشيخ " مصطفى بن عزوز " من أهل العلم والفضل [2] .

([1]) بلدة صحراوية في جنوب تونس ، أطلق عليها اسم : الكوفة الصغرى ؛ لمكانتها العلمية آنذاك ..

ينظر : ديوان خواطر الحياة ؛ للإمام محمد الخضر حسين صـــ ٦ ، اعتنى به ابن أخيه / المحامي على الرضا الحسيني ، طبعة دار النوادر ، سورية ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـــ ، ٢٠١٠م .

([2]) ينظر : مجلة الأزهر في ألف عام ، تأليف الدكتور / محمد عبدالمنعم خفاجي ، والدكتور / على على صبح ١ / ٣٠٢ ، ط / المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ، الطبعة / الأولى ، ٢٠١٢م ، ١٤٢٣هـــ ، وينظر : الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم السلفي بحق ، رابطة العلماء السوريين ، مقال على شبكة المعلومات العنكبوتية " الانترنت " .

نشأته :

نشأ الشيخ الإمام محمد الخضر في بلدة " نفطة " ، وتأثر بأبيه وخاله ، وحفظ القرآن الكريم ، وجانبا من الأدب ، وألمَّ بمبادئ العلوم الشرعية والعربية ، وكان لبلدته التي بزغ فيها للأدب المنظوم والمنثور نفحات تهب في مجالس علمائها ..ثم انتقلت أسرته إلى مدينة تونس وهو في الثانية عشرة من عمره وكان ذلك سنة ١٣٠٥هـ الموافق ١٨٨٩م ، والتحق بطلاب العلم بجامع الزيتونة الذي كان بمثابة جامعة إسلامية متكاملة، وقد كان للتنافس على الشعر فيها مذاقا خاصا ، فظهرت نجابته وبرز نبوغه ، وواصل دراسته العلمية على يد كبار العلماء مثل الشيخ محمد بن الشيخ ، والشيخ محمد النجار وغيرهما ..، ومن ثم اختلط الشاعر بالأدباء والنبلاء ، فاقتفى أثرهم ونظم بعض القصائد في تهنئة أساتذته .. ثم نزل الشاعر دمشق وكان للشعر فيها شأن عظيم ، لكنه آثر صرف قريحته للبحث العلمي .. ثم هبط الشاعر إلى القاهرة سنة ١٣٣٩هـ ، سنة ١٩٢٠م ، واستقر بها ، ثم تجنس بالجنسية المصرية ونال شهادة العالمية [١] ، وكانت صناعة القريض قد ارتقت فيها إلى ما يطمح إليه الشاعر العبقري ، ومن ثم تسامت شاعرية الشاعر وتمايز شعره عن غيره من الشعراء يقول : " وربما خطرت لي صور من المعاني في أوقات أبتغي فيها راحة ، فألبسها ثوبا من الكلام الموزون " [٢].

وفي سنة ١٣٧٠هـ نال الشيخ محمد الخضر حسين عضوية هيئة كبار

---

(١) ينظر : مجلة الأزهر في ألف عام ١/ ٣٠٢ ، ديوانه صـ ٧ ، وينظر : الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم السلفي بحق ، رابطة العلماء السوريين .

(٢) ينظر : ديوانه صـ ٧ .

العلماء برسالته : " القياس في اللغة العربية " ، وللشيخ العديد من المؤلفات العلمية منها : الخيال في الشعر العربي ، و نقض كتاب في الشعر الجاهلي .. وغيرها من الكتب التي أثرى بها المكتبة الإسلامية ، وفي ٢٣ من يوليو سنة ١٩٥٢ م قامت الثورة في مصر للقضاء على الظلم والطغيان ، وفي مستهل عهد الثورة رأت أن يتولى قيادة الأزهر مجاهد عربي من قادة المسلمين في مقاومة الاستعمار فوقع الاختيار على الشيخ ، فانعقد الإجماع على اختياره شيخا للأزهر الشريف في يوم الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة ١٣٧١هـــــــــ ، الموافق ١٥ من سبتمبر سنة ١٩٥٢م .. وأعطى الشيخ للمنصب حقه ، فكان رائدا من رواد النهضة الإسلامية الحديثة في الإصلاح والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومما يذكر أنه كان معتزا بدينه وأزهريته فكان لا يجامل أحدا على حساب دينه وعقيدته ، ولم يتذلل للحاكم .. لكنه استقال من منصبه " مشيخة الأزهر " في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٧٣هـــــــ ، الموافق السادس من يناير سنة ١٩٥٤م ، وتفرغ كعادته للكتابة والبحث والمحاضرة [١] .

وفاته : توفي الشيخ محمد الخضر يوم الأحد الثالث من رجب سنة ١٣٧٧هـــــــــ ، الموافق الثاني من فبراير سنة ١٩٥٨م ودفن بجوار صديقه أحمد تيمور باشا بوصية منه [٢]

---

(١) ينظر : مجلة الأزهر في ألف عام ١/ ٣٠٣ ، الأزهر في " ١٢ " عاما ، إعداد لجنة من الأزهر الشريف برئاسة السيد الأستاذ الدكتور وكيل الأزهر / محمد عبدالله ماضي ٦٧، وما بعدها ، " بدون طبعة ولا تاريخ " .

(٢) ينظر : مجلة الأزهر في ألف عام ١/ ٣٠٣.

الثاني : تصوير الذات " الضابط والدلالة " .

١- معنى كلمة " الصورة " في اللغة :

تدور مادة " صور " في المعاجم اللغوية حول عدة معاني متغايرة يقول ابن فارس : " الصَّادُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ كَلِمَاتٌ كَثِيرَةٌ مُتَبَاينَةُ الْأُصُولِ .. صَوِرَ يَصْوَرُ، إِذَا مَالَ. وَصُرْتُ الشَّيْءَ أَصُورُهُ، وَأَصَرْتُهُ، إِذَا أَمَلْتَهُ إِلَيْكَ. وَيَجِيءُ قِيَاسُهُ: تَصَوَّرَ، لِمَا ضُرِبَ، كَأَنَّهُ مَالَ وَسَقَطَ. فَهَذَا هُوَ الْمُنْقَاسُ، وَسِوَى ذَلِكَ فَكُلُّ كَلِمَةٍ مُنْفَرِدَةٌ بِنَفْسِهَا. مِنْ ذَلِكَ الصُّورَةُ صُورَةُ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وَالْجَمْعُ صُوَرٌ، وَهِيَ هَيْئَةُ خِلْقَتِهِ. اللَّهُ تَعَالَى الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ صَيِّرٌ إِذَا كَانَ جَمِيلَ الصُّورَةِ. وَمِنْ ذَلِكَ الصَّوْرُ: جَمَاعَةُ النَّخْلِ، وَهُوَ الْحَائِشُ. وَلَا وَاحِدَ لِلصَّوْرِ مِنْ لَفْظِهِ. وَمِنْ ذَلِكَ الصِّوارُ، وَهُوَ الْقَطِيعُ مِنَ الْبَقَرِ، وَالْجَمْعِ صِيرَانٌ .. " [١] ، ولعلك تستنتج ممن سبق أن صورة الشيء هي حقيقته ، وهيئته الماثلة أمام أعين الناظرين .

مفهوم الصورة في الأدب العربي :

الصورة هي التعبير بألفاظ اللغة عن المعاني والأفكار والأحاسيس ، وهي وسيلة الشاعر أو الأديب في نقل أفكاره إلي السامعين ، وتنقل تجربة الشاعر الفنية في تصوير الواقع كما يراه أو يتصوره أو يتخيله ، وتستعمل كلمة الصورة " للدلة على كل ما له صلة بالتصوير الحسي ، وتطلق أحيانا مرادفة للتعبير الاستعاري " [٢].

فكل تعبير أدبي يشتمل على تصوير ينبع من مقدرة الأديب على استخدام

---

(١) معجم مقاييس اللغة ،لابن فاس ٣ / ٣٢٠، ت / محمد عبدالسلام هارون ، ط / دار الفكر، ١٣٩٩هـــــ ، ١٩٩٧م .

(٢) الصورة الأدبية ، د / مصطفى ناصف صـــ ٣ ، مكتبة مصر بالقاهرة ، ١٩٥٨م .

عناصر اللغة في تركيب العبارات والأساليب ، وتنسيق الألفاظ و على مقدرته وملكته في الاستفادة من إيحاءات الألفاظ لتكوين علاقات تكسب التعبير جمالا فنيا .. ولعل أقرب تعريف للصورة عند المحدثين أنها " الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجنيس وغيرها من وسائل التعبير الفني .. والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني أو يرسم بها الصورة الشعرية " [1] .

والتصوير ليس ببعيد عن ذلك المفهوم ، وإنما هو مرادف للصورة ، فكلاهما يعتمد تجربة الشاعر التي يصور من خلالها مشاعره وأحاسيسه الداخلية للسامعين من خلال الألفاظ والمعاني والأساليب التي ينظمها من خلال شعره .

٢- مفهوم " الذات " :

معنى كلمة " الذات " في اللغة :

تدور المادة اللغوية لكلمة " ذات " في المعاجم اللغوية العربية حول عدة معان منها:

يقول ابن منظور : " وذاتُ الشيء حَقِيقتُه وخاصَّته وقال الليث يقال قَلَّتْ ذاتُ يَدِه قال وذاتُ ههنا اسم لما مَلَكَتْ يداه كأَنها تقع على الأَموال وكذلك عَرَفه من ذاتِ

([1]) الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر ، د / عبدالقادر القط صـــــ ٤٣٥ ، مكتبة الشباب ١٩٧٨ م ، وينظر : التصوير الفني في شعر عدي بن الرقاع العاملي ، رسالة " ماجستير " في البلاغة والنقد ، إعداد / د / مريم بنت عواض ... إشراف / د . يوسف بن عبدالله الأنصاري ٢٠٠١م ، جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية صـــ ٢١ ، وما بعدها .

نَفْسِه كأَنه يعني سَرِيرَته المُضْمرة قال وذاتٌ ناقصة تمامها ذواتٌ مثل نَواةٍ فحذفوا منها الواو فإذا ثنوا أَتَمُّوا فقالوا ذواتانِ .. وقال ابن الأَنباري في قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ عمران: ١١٩ معناه بحقيقة القلوب من المضمرات فتأْنيث ذات لهذا المعنى كما قال ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ الأنفال: ٧ ، فأَنَّث على معنى الطائفة كما يقال لَقِيتُه ذاتَ يوم فيؤنثون لأَن مَقْصِدهم لقيته مرة في يوم وقوله عز وجل : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ الكهف: ١٧، أُريد بذاتَ الجِهةُ فلذلك أَنَّثها أَراد جهة ذات يمين الكَهف وذاتَ شِماله "[1] .

مفهوم " الذات " في الأدب العربي :

الذات : " تطلق على الجسم وغيره مما له طبيعة خاصة مكونة له ، وفرقوا بين الذات والشخص ، فقالوا : الذات ما يخص الشيء ويميزه عن ما عداه ، وذات الشيء نفسه وعينه ، ولا يخلو عن العرض ، والذات أعم من الشخص ، وتطلق على الجسم وغيره ، بينما الشخص لا يطلق إلا على الجسم ، ثم إن مفهوم الذات يقابل العرض الذي هو سطحي وزائل.. وفي الأدب تتجلى الذات في نضج الأعمال الأدبية أو الفنية ، وتتضح معالمها من خلال الآثار الإبداعية ، ولا يتأتى هذا إلا للذين أوتوا قدرة على سبر الأغوار ، وكشف الكنوز " [2] .

مفهوم الذاتية : " هي نزعة فلسفية تركز على النفس وانشغال الشخص بنفسه ، والكاتب بمواده ، مغفلا عن الموضوعية ، وهي طريقة خاصة بالكتابة ، وهي

([1]) لسان العرب ، لابن منظور ٣ /١٤٧٨ ، ط / دار المعارف ، القاهرة .

([2]) المعجم المفصل في الأدب ، إعداد الدكتور / محمد التونجي صـــ٢/ ٤٥٩ ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩هـــ ، ١٩٩٩ م .

الإفصاح عن ذوق صاحبها والاهتمام بمشاعره وبتجاربه الشخصية ، وهي بذلك تعارض الكلاسيكية التي تُبعد شخص الكاتب عن أدبه ، وتكاد تحصر الكتابة بالسيرة الذاتية لأنها تعرض أفكاره وأحاسيسه دون أن تعبأ بذاتية الآخرين أو بالعالم الخارجي ، صحيح أنها تعرفنا بالأديب عن كثب إلا أنها سبب إفقار مخيلاته وأفكاره العامة .. " [1].

إذن الشعر الذاتي هو الذي يصور الشاعر فيه ذاته ، وما تحمله من هموم وآلام وأحزان ، وأفراح ، ومفاخرة وغير ذلك من مشاعر وأحاسيس في قالب أدبي مستخدما الألفاظ والمعاني والأساليب لتوصيل صورة عن ذاته للمخاطبين ، ولقد تنوعت مظاهر تصوير الشيخ محمد الخصر لذاته في ديوانه " خواطر الحياة " الذي جمع الشاعر فيه كل أشعاره ، فجاءت تعبيرا صادقا عن نفسه وما تحمله من مشاعر كما سيأتي في النماذج الذي انتقيتها من شعره إن شاء الله .

---

(١) المعجم المفصل ٢/٤٦٠ .

المبحث الأول : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن افتخاره بنفسه .

افتخار الإنسان بذاته ونسبه أمر طبعي في كل إنسان لاسيما الشعراء ، فلقد عج الشعر العربي بالفخر وتنوعت أساليب الأدباء في ذلك ، فمنهم من كانت نفسه سوية في الفخر فتباهى بصفاته النفسية والخلقية ولم يطغى في الحديث عن الذات ، ومنهم من أطلق لنفسه العنان وتجاوز الحد وتباهى على الناس بما فيه من سمات يسمو بها على البشر .. أما شاعرنا الإمام محمد الخضر حسين ، فلقد اتخذ من القرآن نبراسا يهتدي به في كل شؤون حياته فوضع قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ الحجرات: ١٣ ، أساسا رئيسا يبني عليه افتخاره ، فتباهى بقيم الإسلام وفلسفته .

ومن ثم جاء فخره بنفسه وبنسبه محفوفا بالأدب الجم ، والمشاعر الجياشة التي لا غلو فيها ولا إسراف ، صور من خلالها نفسا نقية ممتلئة بنور الإيمان ، واثقة في رضى الرحمن ، فكان أول منطق لها في الافتخار زهوها بخشية الرحمن ، وزهد صاحبها عن دنيا الزوال يقول مخاطبا أمه مفاخرا سائر الناس :

" بِنْتَ عــزُّورَ " لقد لقَّنتــنا ... خَشيَةَ اللهِ وأن نـــــرعى الذِّماما
ودرينا مِنكِ أنْ لا نشتري ... بـــــمَــعالينا من الدُنيا حُطاما
وَدَريْنا مِنـــــــــك أنَّ اللهَ لا ... يخذلُ العبدَ إذا العبدُ استقاما
وَدرينا كيفَ لا نعنـــــــو لمِنْ ... حاربَ الحقَّ وإنْ سلَّ الحَّساما
كنتِ نوراً في حمِانا مِثلَما ... نجتلي البدرَ إذا البدرُ تسامى
أفلم تُحييهِ بالقـــــــرآنِ في ... رقَّةِ الخاشـــــعِ ما عِشتِ لِزاما
كنتِ لي روضةَ أُنس أينما ... سِرتُ أهدتْ نفحَ وردٍ وخُزامى
كان لي مِن قلبكِ الطاهرِ في ... كلّ يومٍ دعوةٌ تجني المَرامـــــــا

كانَ لي منكِ إذا أشكو النَّوى كُتُبٌ تحملُ عطفاً وسلاماً [١].

الناظر بعين البلاغة في الأبيات السابقة ، يجد أن الشاعر يصور فيها ذاته مفتخرا بأصله ، ذاكرا مآثر الدين التي غرستها فيه والدته ، وكأنها رسمت فيه كل المعاني السامية المقتبسة من الدين ، ومن ثم وفق الشاعر في رسم لوحة فنية لذاته ، فاستعمل أسلوب الإيجاز بالحذف في قوله :" بنت عزور " والتقدير : يا بنت عزور ، فحذف الشاعر حرف النداء " يا " للدلالة على قرب المنادى من قلبه ، وتعلقه بلبه ، فلا يكاد طيف خيال والدته يفارق عقله لحظة واحدة ، وهذا أبلغ في الفخر ، وأكمل في مقام الاعتداد بالذات ، وأعلق بسياق رثاء الشاعر والدته ، ومن المفارقات العجيبة هنا أن الشاعر قد استطاع أن يفخر بذاته في أثناء حديثه عن رثاء والدته، ومن المفارقات العجيبة هنا أن الشاعر استطاع أن يفخر بذاته في أثناء حديثه عن رثاء والدته ، والتعبير بأسلوب الإيجاز بالحذف هنا يتطلبه السياق ويستدعيه المقام، ويتحدث الشيخ عبد القاهر عن بلاغة الحذف في مثل هذا المقام فيقول : " فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها ، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به " [٢].

ولما مهد الشاعر الحديث عن ذاته بهذا النداء ، وجد الفرصة سانحة لافتخاره بما غرسته فيه أمه من تعاليم إسلامية صافية ، فعبر بالأسلوب الخبري

---

(١) ديوانه صـــ ٢٠٠ ، وما بعدها ، والأبيات من بحر " الرمل " ، وهي جزء من قصيدة " بكاء على قبر " ، مناسبة القصيدة : قالها صاحب الديوان في رثاء والداته سنة ١٣٣٥هـــ .

(٢) كتاب دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني صـــ ١٥٢ ، وما بعدها ، قرأه وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر ، ط / خامسة ١٤٢٤هـــ ، ٢٠٠٤م .

المؤكد بمؤكدين " اللام " و " قد " في قوله :

... لقد لقَّنتِـــنـــا خَشيَةَ اللهِ وأن نـــــــرعى الذِّماما

وذلك للمبالغة في توثيق هذه المعاني ، وتأكيدها في نفوس السامعين ، فوالدته – رحمها الله – كانت مصدر فخر وعزة له لأنها غرست فيه خشية الله في السر والعلن ، وأن يراعى حرمة حقوق الله والعباد ، والفخر هنا فخر بمبادئ الدين ، وأضاف الشاعر الفعل " لقنت " إلي " نا " الفاعلين العائدة على الشاعر ؛ للمبالغة في التشريف والتعظيم بهذا التلقين الذي قرَّ في ذهن السامع ، وآنس في قلبه ، وارتوت به جوارحه لبراعة الأم في التلقين ، والتمكين لهذه المعاني السامية ، أو لعله قصد بصورة الجمع هذه أن هذا التلقين قد شمله هو وأخواته ؛ إذ التلقين يكون في الصغر ، وفي هذه المرحلة يتربى الأخ مع أخواته في بيت واحد ، وبهذا يعلى الشاعر من قدر أمه التي كابدت وتحملت المشاق في تلقين أكثر من أخ .

وآثر الشاعر التعبير بقوله : " خشية الله " دون " خوف الله " مثلا ؛ لأن الخشية أخص من الخوف لأنها تتعلق بمنزل المكروه فلا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية ، فهي أدق وألطف وأشد ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ ﴾ **الأحزاب: ٣٩** ، أما الخوف فيتعلق بالمكروه ، وبغير المكروه [1].

وأصاب الشاعر في توكيد قوله : " وأن نرعى الذماما " بـــــــ " أن " ؛ للدلالة على شدة تأكيد والدته على توطيد الوفاء بعهد الله حتى يصير سلوكا منطبعا في ذات الشاعر ، وعبر بالفعل المضارع " نراعى " ؛ للدلالة رغبتها في استمرار هذه

---

(١) ينظر : معجم الفروق اللغوية ؛ لأبي هلال العسكري صـــ ٢٤٠ ، ت / محمد إبراهيم سليم ، ط /دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، بدون تاريخ .

المراعاة للعهد لدى ابنها بحيث يكون ذلك سجية فيه .

ثم ذكر الشاعر مظهرا آخر من مظاهر الفخر فقال:

ودرينا مِنكِ أنْ لا نشتري   بِمَعالينا من الدُنيا حُطاما

فتباهى بأنه تعلم من أمه أن لا يشتري بعلوه أو تنصيبه مناصبا دنيويا بمال الدنيا وزخرفها ؛ لأن ما في الدنيا ظل زائل ، وعارية تسترد ، أما ما عند الله فهو خير وأبقى ، قال تعالى :﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ ﴾ النحل: ٩٦ ، وآثر الشاعر هنا التعبير بأسلوب النفي في قوله : " لا نشترى بمعالينا من الدنيا حطاما " ؛ لإثارة السامعين وتشويقهم لمعرفة ما تعلمه الشاعر هو وأخواته من أمهم ، لحثهم على مزيد من الإصغاء والاستمالة لما يخبرهم به ، وهذا أبلغ في المعنى ، وأكمل في الأسلوب ؛ لأنه يجعل السامع في أعلى درجات اليقظة والنشاط ، فإذا أتى المعنى حينئذ وجد نفسا متلهفة متشوقة ، فيثبت المعنى في القلب ويقر في قرار مكين ، وعبر الشاعر بالفعل المضارع " نشتري " ؛ لنقل الصورة وتصويرها في قلوب السامعين حية وكأنها منظر مشاهد أمام أعينهم .. ، ومن ثم عبر الشاعر بأسلوب الاستعارة ، فاستعار الحطام وهو ما تكسر من اليبس للتعبير عن مال الدنيا وزخرفها ، وذلك أبلغ في التنفير من تلك الجريرة النكراء ، فكل مال الدنيا كأنه حبات صغيرة لا قيمة لها ، ولا تساوي أن يبيع الإنسان دينه من أجلها ، ولما كانت هذه المعاني الإسلامية من الأهمية بمكان عمد الشاعر إلى أسلوب التكرار ، ليوطد هذه الأفكار في قلوب السامعين ، فكرر قوله : " ودرينا منك " مرتين ؛ للمبالغة في تصوير فخره بهذه الأم التي وطدت أبلغ القيم النبيلة فيه ،واختير هذا الأسلوب دون سواه لأنه " إذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخا ، تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة ، وللتكرار تأثير في عقول المستنيرين ، وتأثيره أكبر

في عقول الجماعات من باب أولى "(١).

ولما كانت نفس الشاعر مفعمة بمعاني الفخر بإرشاد أمه له ذكر لب هذه الإرشادات فقال :

وَدَرَيْنا مِنـــــــْــــك أنَّ اللهَ لا يخذلُ العبدَ إذا العبدُ استقاما

هنا الشاعر أكد المعنى بـــــــ "أنَّ " المشددة وهي أم الباب في التوكيد ليرمي من وراء ذلك ،للدلالة على حث أمه له وتكرار وصيتها بأن استقامة العبد هي السبيل لمعية الله واستدامة نصره ، وعبر الشاعر بالجملة الاسمية المؤكدة " أن الله لا يخذل العبد " ، للدلالة على دوام عدم الخذلان ، واقتران معية الله لكل عبد استدام على الاستقامة لربه ، وكأن هذا البيت تفسير لقوله تعالى : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ محمد: ٧ .

ولعلك تلحظ أن الشاعر هنا قد آثر التعبير بـــــ " أن " الناصبة في قوله : " أن الله لا يخذل العبد " ؛ لإفادة توكيد أن الله لا يخذل العبد ما دام العبد سار مستقيما ، يحفظ حدود الله ، ويستعين به في كل صغيرة وكبيرة ، بينما عبر بـــــــ " إذا " الشرطية في قوله : " إذا العبد استقاما " ؛لأن الغرض هنا الـــتأكيد على القطع بعدم خذلان الله للعبد إذا تحققت استقامته .

ثم أشار الشاعر إلى أن والدته قد غرست في ذاته عدم الخضوع والمذلة والاستكانة لمن حارب الله ، وإن سل سيفه أمام من يتصدى له ، ولما كانت نفس الشاعر تروق لتلك القيم مفاخرا بها ، كرر الفعل : " درينا " ، واستخدم أسلوب الاستفهام الإنكاري ليتلاقى مع الأساليب السابقة في الدلالة على شدة المفاخرة

---

(١) " من بلاغة القرآن " ، تأليف / أحمد أحمد بدوي صـــــ ١٤٣ ، ط / دار نهضة مصر للطبع والنشر .

بهذه المعاني فقال :

كيفَ لا نعنـــــو لمِنْ حاربَ الحقَّ وإنْ سلَّ الحَساما ؟

أي : أنها وطدت في نفسه عزيمة لا تقهر في مقاومة المحتل والغاصب المحارب للحق ؛ فالشاعر يستنكر على نفسه أن يتسلل لها شك في أن تخضع أو تذل للذي يبغي ، ويحارب الحق ، لأن ذلك أصل أصيل من مبادئ الدين الراسخة في قلبه .

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر عبر بأسلوب الإطناب عن طريق الاحتراس في قوله : " وإن سل الحساما " ؛ فلما قدم الشاعر قوله : " كيف لا نعنو لمن حارب الحق " ربما توهم السامع أن الشاعر يتحدث عن مواجهة المحارب للحق في حالة السلم فقط ، وأن الأمر مقتصر على النصيحة ، فرفع الشاعر هذا الإيهام بقوله : " وإن سل الحَساما " ، أي : وإن سل سيفه مستعدا للحرب مرهبا من أمامه ، وهنا يفتخر الشاعر بنشأته ، وأنها كونت فيه الشجاعة والجرأة والبطولة في مواجهة أهل الباطل والتصدي لهم مهما كلفه ذلك .

ثم استعمل الشاعر أسلوب التشبيه البليغ في قوله :

كنتِ نوراً في حمانا مِثلَما نجتلي البدرَ إذا البدرُ تسامى

فشبه أولا والدته بالنور الذي يحتمى به ويستضاء بهديه ، وحذف الشاعر هنا وجه الشبه وأداة التشبيه ؛ للمبالغة في ادعاء اتحاد الطرفين، فكأن والدته صارت ذات النور ومنبع الضياء ، ولما كانت نفس الشاعر مفعمة بمعاني الفخر عمد إلي أسلوب التشبيه التمثيلي[1] فشبه هيئة احتمائه بإشراق نور والدته بحال احتماء السائرين في ظلمة الليل الدامس بنور البدر وضيائه عندما يتسامى البدر في

---

(١) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ٤ /٩٠ ، ت / محمد عبدالمنعم خفاجي ، ط / المكتبة الأزهرية للتراث ، ط / ثالثة ، ١٤١٣هـــــ ، ١٩٩٣م .

غياهب السماء ، فيكون لظهوره نشوة في القلب وزهوة في أنفس السائرين ، ولعلك تلحظ هنا أن وجه الشبه هو شدة الضياء والإشراق والاحتماء والاسترشاد بهذا اللمعان في الظلام .

ولعلك تلمس هنا أن الصورتين : صورة التشبيه البليغ والتمثيلي قد تعانقتا مع بعضهما في النهوض بالمعنى ، وتثبيته في قلوب السامعين ــ وذلك أنسب للتعبير ، وأكمل في السياق .

ولما كانت نفس الشاعر مفعمة بالفخر والاعتزاز بالذات ، آثر الشاعر التعبير بأسلوب الاستفهام المنفي في قوله :

أفلم تُحيــهِ بالقـــرآنِ في رقَّةِ الخاشعِ ما عِشتِ لِزاما

ليقرر في قلوب السامعين مآثره الكريمة في أصله ونشأته ، فلقد أحيت والدته قلبه بالقرآن الكريم ، فعكفت بكل ما تملك على أن تغرس فيه خلق القرآن فبل أن تعلمه له ، فتأدب بأدب القرآن ، فأحيا القرآن قلبه ،فسلك مسلكه في كل صغيرة وكبيرة في حياته ، وانتقى الشاعر أسلوب الاستفهام الداخل على أداة النفي في قوله : " ألم تحييه " ؛ ليفيد التقرير والتأكيد والفخر والهيام بهذه النشأة القرآنية التي امتاز بها الشاعر دون غيره ، فأمه غرست فيه كل قيم القرآن في رقة الخاشع الذي خالطت روحه آيات القرآن ، فانطبعت في سلوكه ، ولعلك تلحظ أن الشاعر قد عبر بأسلوب الاستعارة التصريحية التبعيية في الفعل " تحييه " فضمير الشأن " الهاء " هنا يعود على قلب الشاعر ، فالشاعر شبه هداية القرآن الذي علمته له والداته وغرسته في سلوكه بإحياء قلبه بعد موته ، بجامع الهداية والإحياء بعد الموت في كل ، والشاعر متأثر بقوله تعالى:﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ ﴾ الأنعام: ١٢٢ ، وهذا أنسب لسياق الفخر ، وآكد في المعنى ، وأجود في التعبير ، وأوثر التعبير بأسلوب الكناية عن صفة مداومة

والدته على حثه على حفظ القرآن وتدبره وتأمل معانيه طوال حياتها في قوله : " ما عشت لزاما " ؛ ليتعانق هذا الأسلوب مع الاستعارة المكنية في توفية المقام حقه ، كذلك تلحظ أن قوله : " في رقة الخاشع " كناية عن صفة تأثر أمه بمعاني القرآن وسلوكياته ، وانطباع الخشوع في قلبها ، ومن ثم حق للشاعر أن يتباهى بذلك ؛ لأن والدته رأت أنه ينبغي أن يكون ابنها خاشعا كذلك، وهذا أمكن في الفخر .

ولما كان الشاعر يفيض قلبه بالحب والحنان الممزوج بالفخر ، آثر التعبير بأسلوب التشبيه فشبه حاله عندما كان يستأنس بحنان أمه ، ويهتدي بأخلاقها العالية بحال الروض الوارف الذي يهتدى به ويستظل بظله ، ويشم منه الرائحة الطيبة الذكية فقال :

كنتِ لي روضةَ أُنس أينما سِرتُ أهدتْ نفحَ وردٍ وخُزّامى

ولعلك تلحظ أن وجه الشبه هنا هو الهيئة الحاصلة من الاستئناس والاهتداء والريح الطيبة الأنيقة ، وهذا أبعث على تهييج مشاعر المخاطبين ، ومس شغاف قلوبهم ، فالشاعر يفاخر الناس بنفس سوية ليس فيها كبر ولا غرور ، فنشأته طيبة ، وعبير الأخلاق التي غرستها فيه أمه كانت له نورا وهدي يهتدى به في كل شؤون حياته ، ومن دقائق التعبير أن الشاعر عبر بالفعل الماضي " كنت " وكرره في أكثر من بيت ؛ للدلالة على تحقق الوقوع ، وثبوته ، وتكرار الفعل يومئ إلى اعتزاز الشاعر بأمه وبما زرعته فيه من قيم قرآنية جعلته في غاية النبل والعفاف.

وتتجلى مظاهر التفاخر في انتقاء الشاعر لبعض الألفاظ ذات الإيحاء الفني مثل قوله : " روضة أنس أينما سرت " ؛ فهي توحي بالطمأنينة والسكينة التي كانت بمثابة القوة النورانية التي أثرت في نفس الشاعر ،

كذلك قوله : " أهدت نفح ورد " ، فيها إيحاء بتجدد الرائحة الطيبة من تلك الروضة التي تشبه " الأم " فكأن ريحها المسك الدائم لا يذبل أبدا ، وجمع الشاعر بين قوله

: " نفح ورد " ، وقوله : " خزامي " ؛ لاستيعاب الكمال في طيب رائحة هذه الروضة ، ودوام عبيرها .

ولعلك تدرك أن الشاعر قد وفق في التعبير بالورد في قوله : " نفح ورد " ؛ لأنه أوفق بالسياق لمناسبته لذكر الروضة في قوله " كنت لي روضة أنس " وهي الحديقة الغناء ، ولو عبر بقوله : " نفح مسك " مثلا لكان كلاما غثا لا قيمة له ؛ لأن المسك لا مكان له في الحدائق لكونه مصنوع ومستخلص من دم الغزال ، وهذا أنسب بحال المشبه " الأم " ؛ لأنها غرست كل الفضائل في قلب الشاعر التي فاح شذاها ، وانتشر عبيرها في كل ورد .

وحذف الشاعر حرف التشبيه " الكاف " من هذا التشبيه في قوله : " كنت لي روضة " ، والتقدير : كنت لي كالروضة ؛ للمبالغة في ادعاء اتحاد الطرفين حتى صارا كأنهما شيء واحد ، وهذا مناسب لمقام الفخر والعزة ، وآثر الشاعر التعبير بالقيد : " لي " ؛ للدلالة على اختصاصه دون سائر إخوته بمزيد من الدعاء والاهتمام لما لمحته " والدته " فيه من النباهة وفرط الذكاء .

ولما توهجت مشاعر الفخر ، وعلت أنغامه في قلب الشاعر ، لهج لسانه بهذا البيت الذي كان بمثابة ذروة سنام الفخر المحفوف بالحزن على فقد نبع الحنان ومصدر العطاء " الأم " فقال :

كان لي مِن قلبكِ الطاهرِ في كلّ يومٍ دعوةٌ تجني المَرامـــــــا

وأوثر التعبير هنا بالأسلوب الخبري عن طريق الجملة الفعلية ؛ لأنها الأنسب في التعبير ، والأجود في الأسلوب ؛ لأنها تشي باستمرارية دعاء والدة الشاعر له ومداوتها على ذلك ؛ لتيقنها أن الدعاء مفتاح البركة ، ومخ العبادة ، فلهج لسانها بالدعوات الكريمة لابنها البار " محمد الخضر " ، وتقبل ربها هذه الدعوات ، فكان ابنها شيخا من شيوخ الأزهر النبلاء خلقا النابهين علما .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر قد أجاد التصوير بأسلوب الاستعارة المكنية ؛ حيث شبه قلب أمه بإنسان يدعو بلسانه لابنه كل يوم ، بجامع المداومة على الفعل ، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الدعاء ، مثبتا إياه للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وهذا أبلغ في التعبير ؛ لأنه جعل قلب أمه النابض بالدعاء إنسانا يتكلم ويلهج بلسانه ، واختار " القلب " ؛ للتأكيد على أنها دعوات خالصة صادقة من الفؤاد ، تخرج كأنها سهام تصيب مرامها بإذن الرحمن الرحيم .

ويمكن حمل الكلام على المجاز المرسل لعلاقة الجزئية ؛ حيث عبر بالجزء وهو القلب ، وأرد الأم .. لكن الشاعر آثر التعبير بـــــــــ " القلب " ؛ لأنه أدل على الإخلاص في الدعاء ، وأنه من مكنون قلبها ، وليس من طرف اللسان ، وهذا أدعى إلى قبوله عند الله .

ووفق الشاعر في التعبير بأسلوب الإطناب عن طريق الزيادة ؛ حيث وقع قوله : " الطاهر " إطنابا بالزيادة ؛ للمبالغة في بيان طهارة قلب أمه وعفته ، وعبر الشاعر بأسلوب الكناية في قوله : " تجنى المراما " ؛ للدلالة على قبول الله – تعالى – لهذه الدعوات ، وإصابتها لمرامها ، وسرعة استجابة الله لها ، وما ذلك على الله بعزيز قال تعالى:﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ البقرة: ١٨٦ .

ومن يمعن النظر في هذا البيت ، يجد أنه قد اشتمل على عدة أساليب بلاغية تلاقت لتوضح المعنى ، وتمكينه في نفس السامع ، فعبر بالاستعارة المكنية في قوله : " تجنى المراما " ؛ حيث شبه إصابة دعوات أمه لهدفها بقبولها عند الله ، واستجابته لها ، بالسهام الذي يطلقها المحارب الماهر ، فتصيب الهدف بجامع جودة الرمي مع إصابة الهدف ، وهذا أكمل في الوصف ، وأقوم في التفاخر ، وأدل على أن أمه بلغت عند الله مقاما عليا ، فخصت بالاستجابة في الدعاء فكأن الله

عنها راض .

ولك أن تسأل : ماذا لو لم يستعمل الشاعر هذه الأساليب البلاغية المتكاتفة في توطيد المعنى ، وتمكينه في نفس الشاعر ؟ .. لا شك أن الشاعر لو عمد إلى أسلوب الحقيقة ، ولم يستعمل هذه الأساليب البلاغية لكان ذلك أدعى إلى أن يصير كلام الشاعر كلاما غثا رديئا لا قيمة له .

ولما أيقن الشاعر أن السامعين قد أصغوا له تمام الإصغاء ، راح يرسم لهم صورة أخرى تدلل على عمق نشأته ، وجودة معدنه ، وأنه كالذهب الخالص ، قال :

كانَ لي منكِ إذا أشكو النَّوى كُتُبٌ تحملُ عطفاً وسلاماً

فتلمس هنا أن الشاعر قد عبر بأسلوب التكرار فكرر قوله : كان لي منك " في هذا البيت – أيضا – للمبالغة في تقرير هذا الأمر ، فوالدته كانت له الحصن الحصين ، والملاذ الأمان في كل الظروف ، فحصنته بالدعوات في كل وقت ، إذا كان قريبا منها ، حفته بأنوار دعواتها ، وإذا كان مسافرا أرسلت له كتبا تحمل عطفا وتسليما ، وحثا على الصبر والمثابرة في دين الله .

وقدم الشاعر الخبر " لي " لقصد اختصاصه بهذه الكتب من والدته له مما يؤكد قربه منها وقربها منه ،

وأنه في القلب .. وهذا يتلاقى مع التعبير بالقلب في الدعاء له .

واختار الشاعر هنا التعبير بـــــــ " إذا " الظرفية ، لتتآزر مع التكرار في توطيد معانى المفاخرة ، وتثبيتها في قلوب أولى النهى ، تأمل قوله : " إذا أشكو النوى .. كتب تحمل عطافا وسلاما " ، تجد أنه قد عبر بـــــــ " إذا " الظرفية ؛ لأن المعنى كان لي منك كتب حين كنت أشكو النوى ، وهذا أنسب لسياق الفخر بالذات ، وأمكن الدلالة ، وأعمق في المعنى .

وعبر الشاعر بالجملة الفعلية " تحمل عطفا وسلاما " ؛ لتصوير المنظر أبلغ

تصوير ، ترى هنا دعوات ترسل في صحف مكرمة ، إذا شكا الشاعر الفراق والغربة ، والهجرة من وطنه لأمه ، فتمده بالعون الرباني بتلك الدعوات التي تحمل عطفا وسلاما ، يقع على قلبه كالنسيم الذي يبرئ العليل ، وهذا أكمل في الفخر ، وأدعى للاعتزاز .

ولعلك تلحظ أن القصيدة هنا جاءت على بحر " الرمل " ؛ ليتناغم مع الحالة النفسية للشاعر ، وما فيه من حزن شديد ، وألم عظيم على فقد والدته ، وفخره بها وبما غرسته في نفسه من قيم ومشاعر إسلامية جعلته متفردا عن غيره ، فحق له المفاخرة ؛ لذا جاء روى القصيدة على حرف " الميم " ، لتعبر عن مدى تجشم الألم والحنين ، والحزن الدفين في قلبه على وفاته والدته ، لكنه سلم أمره لله ، وراح يذكر للناس ما غرسته فيه أمه من قيم يفاخر بها ، ويرقى بها إلى قمة الأخلاق .

حديث الشاعر عن سماته الشخصية :

يقول الشاعر :

قالوا : ركبتَ بالانْقباضِ مِطيــّة ً ... أقصتكَ عن عيشِ الثَّريِّ لماذا ؟
قلتُ: انْقِباضي أن أصونَ النفسَ عن ... مــلقٍ يعاقرُهُ الطغــامُ لِواذا
إن ينتجعْ فئةٌ بهِ وبــلاً فخُــــــذْ ... أَخذَ الكرامِ ولو نجعتَ رَذاذا
ومنَ السلامةِ أنْ أصونَ الوجهَ عنْ ... ملقِ الذي اتخذَ النفاقَ مَلاذا [1].

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن أحد سماته الشخصية ، وهي صيانة نفسه عن التملق والنفاق والتودد لأهل الباطل بغية اتخاذهم حصنا وملاذا وملجأ له

([1]) ديوانه صــ ٩٥ ، هذه المقطوعة من البحر الكامل التام ، قالها الشاعر في مصر سنة ١٣٦٤هـــــ ، بعنوان : " صيانة النفس عن التملق " .

؛ لأن ثقته في الله كانت له بمثابة الحصن الحصين ، فوجد نفسه يبتغى الغنى من الله ، فسعى لإرضائه والاستغناء عما في أيدي الناس من الظل الزائل .

والناظر بعين البلاغة في هذه الأبيات يجد أنها تصور للقارئ صورة إنسان مسلم يبتغى وجه ربه في كل لحظة تمر عليه في الحياة ، ومن ثم استهل الشاعر هذه الدرة الأدبية بأسلوب الحوار " قالوا : ركبت بالانقباض مطية .. " ؛ لما يمتاز به هذا الأسلوب من إثارة وتهيئة لذهن السامعين ، وتهييج لمشاعرهم ليقبلوا بقلوبهم وأسماعهم على هذا الخبر الجميل الذي يأخذ بالألباب ، فصور نفسه بصورة غريبة استدعت من السامعين أن يتساءلوا عن صاحبها ، وهي صورة رجل شجاع آثر الانقباض والابتعاد عن التلطف الشديد والتملق لأهل الباطل والركون إليهم مما تسبب له في بعده عن عيش الأثرياء ؛ لأنه يبتغي ما عند ربه ، ويعزف عما في أيدي الناس.

وآثر الشاعر هنا التعبير بالأسلوب الخبري " قالوا : ركبت بالانقباض مطية " دون التعبير بالأسلوب الإنشائي مثلا ، فلم يقل : أتقولون : ركبت بالانقباض ... ؟ " ؛ لأن الأسلوب الخبري هنا أنسب لمقام الحديث عن صيانة النفس ، وأدعى لتوطيد عزة نفسه لدى المخاطبين ، ومن ثم عبر عنهم بالغيبة " قالوا " ولم يقل : " أتقولون " بضمير الخطاب ؛ للدلالة على تجاهل الشاعر لهم ، وأنهم وما قالوا عنده لا يساوون شيئا ، وأن ما يسمونه عندهم انقباض وابتعاد إنما هو عنده وازع أخلاقي ومبدأ ديني استقاه من الشريعة الإسلامية ، فامتثله سلوكا إنسانيا تطبيقا لأمر الله – تعالى – في قوله :﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ هود: ١١٣.

وتلحظ هنا أن الشاعر قد عبر بأسلوب الاستعارة ؛ حيث شبه تمسك الشاعر بالمبادئ السامية وانقباضه عليها ، وابتعاده عن أهل الشر ، بركوبه مطية ،

فاستعار الركوب لتمسك الشاعر برأيه ، وتصميمه على الحق ، وثباته عليه .. مما كان له عظيم الأثر في سلوكه .

وعبر الشاعر بالأفعال الماضية : " ركبت .. أقصتك " ؛ للدلالة على أن هؤلاء المتكلمين الذين يلقون باللوم عليه ؛ لعدم تملقه ونفاقه كأنهم قد تحققوا وتبينوا وتأكدوا أن سبب بعده عن عيش الأثرياء إنما هو ركوبه لمطية الانقباض ، وهذا تصوير بالغ الدقة من الشاعر لمشاعر هؤلاء التافهين الذين لا يعرفون قيم المروءة عند العلماء الربانيين أمثال الشيخ محمد الخضر .. فالدنيا عندهم لا تساوي شيئا ، ومن ثم كان التعبير بأسلوب الاستفهام الحقيقي في قوله : " أقتصك عن عيش الثري لماذا ؟ ملائما للسياق ، متناغما مع المتكلمين الذين استقر في مكامن عقولهم أن ابتعاد الشيخ محمد الخضر عن التملق والمداهنة لأهل الباطل ، هو السبب الرئيس لشقائه ، وأنه لو حاد عن ذلك لعاش في نعيم ورغد من العيش ، وأخر الشاعر أداة الاستفهام " لماذا " عن جملة الاستفهام وهي قوله : "

قالوا : ركبتَ بالاْنقباضِ مِطيـــَّـــةً أقصتكَ عن عيشِ الثَّرِيِّ لماذا ؟

فالتقدير : " قالوا : لماذا ركبت بالانقباض مطية ، أقصتك عن عيش الثري ؟ ، وهو استفهام يحمل كما كبيرا من اللوم والعتاب والـــتأنيب ، ولعله أخر أداة الاستفهام استخفافا بسؤالهم وتجاهلا وتسفيها لعقولهم ومنطقهم الذي لا يزن الأمور في نصابها الصحيح .

ولما كان هذا التصور غير صائب من هؤلاء الحاقدين الذين يلومونه ، رد الشاعر عليهم بأسلوب راق بديع ، فقال :

قلتُ: انْقِباضي أن أصونَ النفسَ عن مـــــــــلقٍ يعاقِرُهُ الطغـــامُ لِواذا

وعبر الشاعر بالأسلوب الخبري الخالي من التأكيد في قوله : " انقباضي .. " ، ولم يقل : إن انقباضي .. " ؛ تنزيلا للمنكر منزلة غير المنكر تهكما من هؤلاء الذين

يلومونه بغير علم على تمسكه بمبادئ الإسلام وقيمه التي ينبغي أن تكون طبعا في المسلم وسلوكا ثابتا فيه .. وهذا أدعى لحثهم على التأمل في جهلهم والرجوع عنه.

وعبر الشاعر بالفعل " أصون " دون غيره ، لأنه أكمل في المنع ، وأحوط في الصون ، وقال عن " ملق " دون أن يقول : " عن نفاق " ؛ لأن التملق أول درجات النفاق وأعظمه ، ومسلك الشيطان الذي تشرئب له القلوب الضعيفة فينفذ من خلالها لقلوبهم ، ومن دقة التعبير هنا أن الشاعر صور منظر هؤلاء أبشع تصوير فقال : " يعاقره الطغام لواذا " أي : أن أوغاد الناس يتخذون هذا التلطف الشديد والتملق المتصنع حصنا وملتجأ لهم ، يتسللون به لقلوب أهل الباطل ويستترون به ، ثم ينتقل الشاعر إلى تمكين المعنى في ذهن السامع فيقول : " إن ينتجع فئة به وبلا " أي : إن تطلب فئة بهذا التملق وبلا أي : عطاء كبيرا ، فخذا أيها السامع أخذ الكرام ولو نجعت وأخذت القليل من المطر الضعيف أي : المال القليل الذي يعينك على شغف العيش ، والملاحظ هنا أن الشاعر عبر بأسلوب الشرط " إن ينتجع .. فخذ .. " ؛ لأنه أبلغ تهيئة لقلب السامع ، وتشويقه إذ يتطلع المخاطب عند سماع الشرط إلي معرفة جزائه ، ويظل مترقبا له حتى يقف عليه فيتمكن في ذهنه ، فتقوى رغبته وتشتد رغبته في الامتثال والإجابة [1] .

فلما بدأ الشاعر بقوله : إن ينتجع فئة به وبلا " ، تلهفت نفس السامع لمعرفة جواب الشرط وانتظر الحكم الذي سيحكم به الشاعر ، وعندئذ جاء الجواب : " فخذ أخذ الكرام ولو نجعت رذاذا " ، فقر في وجدان السامعين ، وثبت في

([1]) ينظر : التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه ، للدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود صـــ ٨٨ ، ط / مكتبة الحسين الإسلامية ، ط / أولى ١٤١٤هـــ ، ١٩٩٣م

أذهانهم ، وهذا أبلغ في البيان ، وأنسب للسياق لأن " في البيان إذا ورد بعد الإبهام وبعد التحريك له ، أبدا لطفا ونبلا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك " [1].

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر عبر بأسلوب الاستعارة التمثيلية ليتعانق مع أسلوب الشرط في النهوض بالمعنى ؛ حيث صور حاله في رضاه بالقليل الذي يوطن فيه نفسه في حين تهافت الكثير على حطام هذه الدنيا وملذاتها ، بحال من يكتفي بالرزاز من المطر في وقت ينتجعون طلبا للوابل والمطر الغزير ، فاستعار الشاعر الاسم " وبلا " : أي : مطرا شديا غزيرا للعطاء الوفير الذي يجنيه المتملق من تملقه ونفاقه ، واستعار قوله " رذاذا " أي : مطرا ضعيفا ، لقلة النفع والحظ الذي يحصل عليه الكرام لعدم تملقهم ونفاقهم لأهل الباطل ، ومن ثم آثر الشاعر التعبير بفعل الأمر " خذ " ؛ للمبالغة في نصح السامعين وإرشادهم إلي ضرورة أخذ القليل النافع الناتج عن عدم التملق والنفاق ، لأنه طعام الأخيار الكرام .

ثم لما كان السياق أحوج إلى حكمة بالغة ، تقر بها الأنفس ، وتشفى بها القلوب ، قال :

ومنَ السلامةِ أنْ أصونَ الوجهَ عنْ مـــــلق الذي اتخذَ النفاقَ مَلاذا

فنصح الشاعر نفسه ومن حوله بأنه من السلامة أن يحفظ وجهه عن تملق الذي اتخذ النفاق حصنا وملتجئا يلتجئ إليه ، وهذا أجود في التعبير ، وأبلغ في النصح والإرشاد ، وأكمل في رسم صورة حقيقية لذات الشاعر وكأنها ماثلة أمام أعين المخاطبين ، تكاد تنطق بسمو أخلاقه ، وتجافيه عن النفاق والمداهنة والتملق، فصورت هذه الأبيات صورة رجل فاضل قلبه يمتلئ بالحسن والجمال .

ولعلك تلحظ أن هذه المقطوعة الشعرية جاءت على بحر " الكامل التام " ؛

([1]) كتاب دلائل الإعجاز صـــــ ١٦٣ ، وما بعدها .

لمناسبته الحالة النفسية للشاعر ، فهو أحرص الناس على صيانة نفسه من التملق لأنه أول درجات النفاق ، ومن ثم عبر بهذا البحر ليؤكد كمال نفسه وعزتها بالإسلام ، وتمامها بأخلاقه ، فلا حاجة لها بأمر ينافي قيم دينها ، ولو فيه ثراؤها وعزتها .. فلا عزة بغير فضائل الدين وتعالميه ، وجاءت روي المقطوعة هنا بحرف " الذال " للدلالة على امتعاضه وغضبه الشديد من هؤلاء الذين يلومونه على تمسكه بأخلاقه الدين ، وانقباضه على الحق المبين .

حديث الشاعر عن محبته الصادقة لإخوانه :

نبئتُ أنكَ موجـــــــعٌ فارتـــــــاعَ قلبي وانتفضْ
ما ضَرَّ لو كنتُ المَريـــ ـــضَ وزالَ عن خِلِّي المرضْ
وجعُ القلوبِ أشدُّ مِنْ وجعِ الجُسومِ إذا عَـــــــرضْ
لا خِلَّ إلا منْ يَبيـــــــ ـــتُ إذا مِرضتَ على مَضَضْ [1].

يصور لنا الشاعر هنا أهم السمات الذاتية له وهي محبته الصادقة الصحيحة لأصدقائه ،لأنها تبنى على الصدق المطلق بين الأخلاء ، والحب الصافي الخال من أي حظ من حظوظ الدنيا ، والأبيات هنا تشي بصدق الشاعر في المحبة ، وهذا مستمد من عقيدته الإسلامية الراسخة ، وإيمانه بالمبادئ والقيم النبوية يقول :

إنما الدين عزة وعفاف .. يصرف الطرف عن وجوه المعاصي [2].

والمتأمل للأبيات السابقة ، يجد أن الشاعر قد استعمل عدة أساليب بلاغية ؛ لتصوير مشاعره الصادقة تجاه أصدقائه ، ليقدم للسامع أنموذجا راقيا للصداقة

([1]) ديوانه صـــ ١٢٦ ، وهذه المقطوعة الشعرية من البحر الكامل المجزوء ، وقالها تصويرا للصداقة الصحيحة .

([2]) البيت للشاعر في ديوانه ، وهو من البحر الخفيف .

السلمية الخالية من التمويه والخداع ، ومن ثم عمد إلى الأسلوب الخبري الخالي من التأكيد فاستهل هذه المقطوعة بقوله :

" نبئت أنك موجع " ، وبنى الفعل للمجهول " نبئت " ؛ للدلالة على أهمية هذا النبأ وأنه وقع على قلبه كالصاعقة ، فخله ورفيق عمره أصيب بوجع مؤلم تئن له القلوب ، فالشاعر ليس غرضه أن يخبر بمن قال له الخبر ؟ وإنما غرضه الكشف عن حزنه الشديد وألمه العميق الذي لحق بقلبه ، وعصف بلبه عندما أخبر بمرض صديقه ، ولما كان سمات الشاعر من الندرة بمكان لتمسكه بقيم الإسلام النبيلة ، آثر التعبير باسم المفعول : " مُوجَع " بفتح الجيم ؛ للدلالة ثبات هذا الوجع ودوامه على صديقه ، مما حرك أشجان الشاعر ، واسترعى انتباهه ، ومن ثم لهج لسانه بما لحق بقلبه عندما سمع هذا الخبر المحزن ، فناسب ذلك أن يقول : " فارتاع قلبي وانتفض " ؛ لأنه أبلغ في بيان آثر هذا الخبر ، ووقعه على قلبه ، فعبر بحرف العطف " الفاء " ؛ للدلالة على سرعة ارتياع قلبه ، وفزعه الشديد على صديقه ؛ الذي أضناه المرض ، وسكن جسده ، وحلَّ به ، فأوجعه وجعا شديدا ، وترتب على ذلك أن قلب صديقه أي :" الشاعر " أصيب بفزع أشد ، فانتفض قلبه ، وتبلدت جوارحه حزنا وألما على صديقه .

ولعلك تحس هنا بلهفة الشاعر على صديقه ، وشدة خوفه عليه ولذلك عبر بالفعل :" ارتاع " دون " فزع " مثلا ، لأن الروع أشد ألوان الخوف والفزع قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ هود: ٧٤ ، يقول ابن منظور : " الروع والرواع والتروع : الفزع ، راعني الأمر يروعني روعا " [١]، أما الفزع فيقصد به

---

(١) صحيح مسلم ،لأبي الحسين مسلم بن الحجاج : ١ /٤٩ ، ح /٧٨ ، ت / مجموعة من المحققين ، ط / دار الجيل ، بيروت .

الخوف أو الذعر يقول ابن فارس : " الْفَاءُ وَالزَّاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا الذُّعْرُ، وَالْآخَرُ الْإِغَاثَةُ "[١]، فالذي يتناغم مع المقام هنا الروع لأنه يجسد شدة خوف الشاعر على صديقه ، وأن قلبه مرتعدا عليه .

ثم رسم الشاعر صورة رائعة بألفاظ عذبة رقيقة ، فتمنى زوال المرض عن صديقه وأن يكون هو المريض ، وهذه الصورة من الندرة بمكان في الأدب العربي فمن المحال أن يتمنى الإنسان زوال المرض عن خله ، ولحوقه به ، تأمل قوله :

ما ضَرَّ لو كنتُ المَريـــــــــــــــ ـــــــــــــــضَ وزالَ عن خِلِّي المرضْ

تجد أنه عبر بأسلوب النفي بـــــــ " ما " ؛ للمبالغة في تشويق السامعين وجذب انتباههم لهذا الخبر العجيب ؛ لأن النفس تتطلع عند وقوع النفي إلى معرفة أسبابه ، وتشغل بالبحث في مضمون الجملة التي وقع فيها النفي ، وهذا من شأنه تأكيد المعنى وتمكينه[٢] ، وهذا أبلغ في الدلالة على أن الشاعر لن يضره لو سكن المرض جسمه ، وبرئ منه صديقه ، وكأن الشاعر هنا يطبق قول النبي – صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " [٣] ، فكما أن الإنسان يحب العافية لنفسه ، كذلك يجب أن يحبها لغيره ، لكن شاعرنا ضرب أروع الأمثلة في الحب والإخاء فتمنى الشفاء لخِله ، والمرض لنفسه ، ولما كان الشاعر عالما بأمور دينه وكان ما يتنماه محال الوقوع ، وأن العافية والمرض بيد الله ، آثر التعبير بـــــــــ " لو " لأنها أبلغ في التعبير ، وأجود في السبك فهي تدل على " امتناع الشيء لامتناع غيره ، ويلزم كون جملتيها فعليتين وكون الفعل

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ٤ /٥٠١ ، مادة " فزع " .

(٢) ينظر : التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه صـــــ ٧٣ .

(٣) ينظر : التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه صـــــ ٧٣ .

ماضيا "[1] ، فتلمس هنا أن الشرط " لو كنت المريض " مقطوع بانتفائه ، فيلزم انتفاء الجزاء " وزال عن خلي المرض " .

وعبر الشاعر بالفعل الماضي " زال " دون التعبير بالفعل المضارع " يزول " ؛ للمبالغة في بيان اشتداد أمله في الله ، ليرفع عن خله المرض، وأن متعلق القلب بهذا التحقق .

ولعلك تلحظ أن الشاعر قد استخدم أسلوب الكناية في قوله :

وجعُ القلوبِ أشدُّ مِنْ وجعِ الجُسومِ إذا عَـــــــرضْ

فاشتمل هذا البيت على كناية عن صفة شدة التوجع والألم الذي يعتصر قلب الشاعر ، فكأن جسمه يفتك به المرض لا جسم خليله ، فبعدما أيقن أن تمنيه أن يحل المرض في جسمه دون جسم صديقه لن يحدث لأن ذلك بأمر الله ومشيئته ، صور لنا حاله أتم تصوير فعبر بالجملة الاسمية " وجع القلوب أشد من وجع الجسوم إذا عرض " ؛ لأنها أبلغ في الدلالة على ثبات وجع القلوب واستدامة شدته ، ولبيان أنه أقوى إيلاما وإيجاعا من توجع الأجساد ، فالتعبير بالجملة الاسمية هنا أنجع لأن " موضوع الاسم أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء " [2] .

ثم ذكر الشاعر في نهاية هذه المقطوعة بيت القصيد فقال :

لا خِلَّ إلا منْ يَبيـــــــتُ إذا مِرضتَ على مَضَضْ

وهنا يعبر الشاعر بأسلوب الإيجاز بالحذف ؛ حيث حذف الصفة اكتفاء بذكر الموصوف ، والتقدير : " لا خلَّ صادق " ، والحذف هنا أبلغ من ذكر الصفة ؛ لأنها

([1]) الإيضاح ٢ /١٢٦ .

([2]) كتاب دلائل الإعجاز صـــ ١٧٤ .

جعل النفس تتشوق لمعرفة المحذوف فعندما تبحث عنه وتجده يقر عندها في قرار مكين ، وعبر الشاعر بأسلوب النفي بـــــــــ " لا " ؛ لأنه أمكن في القطع بنفي أن يكون الصديق الصادق في محبته تقر له عين أو يرقد له وخله متألم من شدة المرض ، فالشاعر يكاد يجزم بأنه لا يكاد يوجد صديق وفي مخلص يبيت على فراشة مستقرا ، وخليله مريض ، فالخليل الصادق من تمتزج مشاعره بمشاعر صديقه ، ومن ثم جزم الشاعر بأنه لا ينام إلا على مضض أي على وجع مصيبة صديقه .

ولعلك تلحظ أن الشاعر هنا عبر بأسلوب القصر بالنفي بـــــــ " لا " والاستثناء بـــــــ " إلا " في قوله :

لا خِلَّ إلا منْ يَبيـــ ـــــتُ إذا مرِضتَ على مَضَضْ

فقصر الموصوف الخليل الصادق على صفة وهي كونه أنه لا يبت وصديقه مريض إلا وهو مهموم حزين ذو ألم ممض ، بيد أنه لم يوفق في التعبير ؛ حيث أنه جلب التعبير بقوله : " على مضض " ليناسب قافية القصيدة فاضطرته القافية لذلك ، وليس لمناسبة المعنى ، مما أحدث خللا في البيت بسبب عدم تناغم اللفظ مع سياق المعنى ، والشاعر هنا وفق في التعبير بأسلوب القصر للمبالغة في توكيد مدى حزن الصديق على صديقه ، بيد أن الألفاظ التي استدعها الشاعر هنا لا تتلاءم مع المعنى المراد ، ولا تناسب الأسلوب ، ولا تتوافق مع سياق القصيدة ، مما أوقع ركاكة في التعبير ، وغموضا واضحا في المعنى ، ولعل الحالة النفسية للشاعر كانت هي الباعث الرئيس وراء هذه الهانة من عدم التوفيق في انتقاء اللفظ المناسب ، وإلا كان من الممكن أن يقال : على سقم أو على علل أو على وجل .. أو نحو ذلك .

وجاءت هذه المقطوعة الشعرية على بحر" الكامل المجزوء " ؛ لمناسبته للحالة

النفسية التي يعيش فيها الشاعر وما بها من وجع وتألم على مرض صديقه ، الأمر الذي استدعى من الشاعر أن يتمنى أن يمرض هو بدلا عنه ، وجاء الروي هنا على حرف " الضاد " ، ليدل على استطالة الصداقة بين الشاعر وصديقه ، ليجسد حالة الألم المضض التي تعتصر قلبه حزنا على مرض صديقه ، وهذا أنسب لمرمى القصيدة وهو تصوير الصداقة الصحيحة السليمة ، وكأن التعبير بهذا البحر دون سواه أدل على النقص الذي يعتري البشر في كل أحوالهم ، فالكمال لله وحده ، كما أن هذا الحرف بما يمتاز به من قوة واستعلاء يدل على أن نفس الشاعر قوية مستعلية بما تحمله آداب إسلامية ، استدعت منه المفاخرة بها .

المبحث الثاني : **تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن نفسه أثناء مرضه** .

لقد أجاد الشيخ محمد الخضر حسين – رحمه الله – في تصوير مشاعره وخلجاته النفسية ، وزفراته الرائقة أثناء مرضه ، فجاءت جل قصائده تعبيرا صادقا عن نفس مفعمة بالإيمان بالله ، واثقة في سعة رحمته ، محاطة بالأمل في نيل رضاه ، والتنعم في جنته .. وقصيدته " وجه الموت غير كئيب " أبلغ دليل على ذلك فتجلت فيها مظاهر الإيمان بالله – تعالى – والاستسلام لقضائه في انتقاء الشاعر للألفاظ والأساليب البلاغية الملائمة لهذا الغرض ، في قالب لفظي رصين ، ومعنى رائق عذب جميل ؛ لذا وقع اختياري لتكون نموذجا للتحليل والدراسة ، يقول الشاعر :

أقولُ : فَلا أرتادُ غيرَ خَصيبِ وأنظمُ – لكنْ لا أطيلُ – نَسيبي
أجــدٌّ وإنْ رام َالنَّديمُ دُعابةً فلمْ تَرَ غَيرَ الجدَّ عينُ رقيبي
أَحُثُّ إلى داعي المَعالي مَطِيَّتي ولستُ إذا يَدْعو الهوى بمُجيبِ
ومَا برَحَتْ هَذي الحياةُ تروعُني بكبـــــــوةِ آمالٍ وفقدِ حبيبِ
فأنكرتُها لا البدرُ يَطْلُعُ مُؤنِسا ولا الروضُ يُسليني بِنَفحَةِ طيبِ
ومَا ليَلُها إلا سريرةُ حاسدٍ وما صُبحُهُا إلا بياضُ مشيبٍ
أَطَلَّ علَيَّ الموتُ من خِلَلِ الضَّنا فآنستُ وَجْهَ الموتِ غيرَ كَئيبِ
ولوْ جسَّ أَحشائي لخِلتُ بناتهُ وإن هالَ أقواماَ بنانُ طبيبِ
فلا كانَ لي من عيشٍ أرى فيهِ أُمتي تساسُ بكفيْ غاشمٍ وغريبٍ (١).

استهل الشاعر هنا حديثه عن ذاته بالتعبير عن زفراته النفسية ، فبدأ قصيدته

---

(١) ديوانه صـــــ ٣٢ ، وما بعدها ، والقصيدة من البحر الطويل ، وقالها الشاعر على فراش المرض بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـــــ .

بالكشف عما يجيش في صدره ، لذلك استخدم الأسلوب الخبري فبدأ به قصيدته فقال : " أقول فلا ارتاد غير خصيب " ، لتهيئة قلوب السامعين ، وتنقية أذهانهم لهذا الخبر العظيم ،فالشاعر لا يبغي إلا الكلام الحسن المثمر المتفرع الأغصان ، ومن ثم حسن موقع الاستعارة التمثيلية ؛ حيث شبه الشاعر حاله في تجافيه وبعده عن الكلام الغريب أو الساقط قليل النفع عند نظمه للشعر ، بحال الرائد الذي ينتقي لقومه الأرض الجيدة المليئة بالكلأ ولا يجرهم إلي واد أجدب غير خصيب ، وذلك في أبلغ التجسيد والتجسيم ، وأجود في التعبير .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر قد استخدم أسلوب الإيجاز بالحذف ليتعانق مع الأسلوب الخبري في النهوض بالمعنى في هذا السياق ، فحذف الشاعر المفعول به من قوله : " أقول فلا ارتاد " ، والتقدير : أقول قصيدتي أو أقول قولا ، والحذف هنا أبلغ في المعنى ، وأحكم في الأسلوب ؛ لأنه جعل السامع متلهفا لتقدير المحذوف ، فإذا ما وقع على المحذوف صادف المعنى نفسا متشوقة ، فقر فيها ، وثبت عندها .

كذلك عبر الشاعر في الشطر الثاني من البيت بأسلوب الإطناب عن طريق الاحتراس ؛ ليتآزر مع غيره من الأساليب البلاغية في الوفاء بحق المعنى ، فوقع قوله : " لكن لا أطيل نسيبي " ، احتراسا بين الفعل و " أنظم " والمفعول " نسيبي " ؛ للتأكيد على أن غرض الشاعر عدم الإطالة في النسيب أي : التشبيب بالمرأة ، لأن حالة المرض التي فيها الشاعر لا تسمح له بالحديث عن الأطلال والتشبب بالنساء ، لذا كان الإيجاز في القول منهج الشاعر وبغيته في هذه القصيدة .

ولعلك تلحظ أن الشاعر قد عمد إلى الأسلوب الخبري ؛ لتمكين المعنى في أذهان المخاطبين ، وتثبيته في قلوبهم فقال :

أجـــــــدُّ وإنْ رام َالنَّديمُ دُعابةً ... فلمْ تَرَ غَيرَ الجدَّ عينُ رقيبي

وهذا أدل على أنه يرمى إلى الجدّ من القول، ويعمد إلى السديد منه ، ولا يبغ الدعابة أو التشبب بالمرأة ؛ لأنه سيقدم خلاصة تجربته الذاتية في الحياة .

ومن ثم وجد الشاعر الفرصة سانحة ليصور لنا نفسه الشريفة التي ترجو لقاء الله ، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، فعبر بأسلوب الكناية عن صفة في قوله : " أحث إلى داعي المعالي مطيتي " ، فهي كناية عن صرف همته إلى معالى الأمور والمسارعة إلى من يدعو إليها ، وترك سفاسفها والساقط عنها ، ثم أكد المعنى في الشطر الثاني من البيت بتجاهل داعى الهوى فلا يجيبه إلى ما يتطلبه من الميل إلى التواني والتكاسل .

فوقعت هذه العبارة كناية عن صفة دنو أجل الشاعر ، وقرب رحيله للقاء ربه ، ولعلك تلحظ أن قوله : " داع المعالي " كناية عن موصوف وهو الحق – سبحانه وتعالى – ، وهذا أبلغ في توطيد المعنى في قلوب السامعين ، ومن اللافت للنظر أن الشاعر قد كرر أسلوب الكناية في الشطر الثاني من البيت فوقع قوله : " ولست إذا يدعو الهوى بمجيب " ؛ فوقعت هذه العبارة كناية عن صفة عزوفه عن هوى الدنيا وزخرفها ، وهذا أبلغ في الدلالة على أن الشاعر عازف عن لذة الدنيا مقبلا على ربه بنفس راضية مطمئنة قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات: ٤٠ – ٤١ .

ومن روائع البيان هنا أن الشاعر قد استخدم أسلوب الاستعارة المكنية ؛ لتمتزج مع أساليب الكناية في الوفاء بحق هذا المعنى ، فوقع قوله : " يدعو الهوى " استعارة بالكناية ؛ حيث شبه الشاعر الهوى بإنسان يدعو للطغيان والشهوات ، والتمتع بالملذات بجامع الحديث والاستمالة في كل ، وحذف المشبه به ، وأبقى شيئا من لوازمه ، وهو الدعاء مثبتا إياه للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وهذا أبلغ في تصوير سمو ذات الشاعر ، وأنها لا تبغي إلا رضى الله أملا في

التنعم بجنته ، و" الهوى " هنا المقصود به " هوى النفس " أو " الدنيا " .

وتلمس هنا أن في قوله : " أحث " حسن ظن بالله رغم ما فيه من ألم يشتد على أعضاء جسده ، ومن دقائق المباني التي تومئ إلى تمكن الشاعر في فن القريض ، أنه انتخب أرقى الألفاظ ليكني بها عن الحق – سبحانه – ، وانتقى أعذب الأساليب لتكون مطيته في الحديث عن الذات الإلهية ، ثم أخذ الشاعر يصور للسامعين شدة ضراوة الدنيا ، وأنها لا تدوم على حال فقال :

ومَا برَحَتْ هَذي الحياةُ تروعُني   بكبوةِ آمالٍ وفقدِ حبيبِ

وهذا أروع تصوير لحال الدنيا معه ،فلم تكن صافية مع الشاعر ولا مع غيره ، فلم تصفُ له دوما ، وإنما كدرت عليه أحيانا بكبوة في طريق الأمل ، أو بفقد بعض الأحبة .. وآثر الشاعر التعبير بأسلوب الوصل عن طريق التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظا ومعنى [1] ؛ حيث عطف الشاعر قوله :

وما برحت هذي الحياة .. " على ما قبلها : وهي جملة " ولست إذا يدعو الهوى بمجيب " ؛ لأن الجملتين خبريتان لفظا ومعنى ؛ وهذا أمكن في تسلسل المعنى ، وروعته .

ولعلك تلمس أن الشاعر هنا قد انتخب الأسلوب الخبري " وما برحت هذي الحياة .. " ؛ لأنه الأقدر على تصوير المصاعب والآلام التي مر بها في حياته بين كبوة على فقد نفيس كان يرجوه فحالت رحى الدنيا بينه وبين ما كان يأمله ، ثم راح يصور حزنه الدفين على فقده للأحبة الذين امتدت يد المنية فقطفت زهرة أرواحهم قبل نضوجها ، لكنهم تركوا بصمة رائقة في نفس الشاعر ، فكانوا مصدر حسرة له على فقدهم ، ثم أخذ الشاعر يجسد لنا تلك المواقف الصاخبة التي ألمت

---

(١) الإيضاح ٣ /١٢٧ .

به في حياته ، فتلقفته الحياة بين فرح وحزن ، ومن ثم آثر التعبير بالجملة الفعلية المقترنة بفاء السرعة فقال :" فأنكرتها "، أي : أنكر الشاعر هذه الأمور التي لحقت به الدنيا ولم يعبأ بها ؛ لأنها قدر الله ، والفاء تشي بسرعة الإنكار ، ولما كان الشاعر مرمى الشاعر أن يجسد لنا صورته الذاتية ، عمد إلى أسلوب النفي في قوله : " لا البدر " ؛ لتشويق السامعين وتهيئة قلوبهم لمعرفة الجواب ، فإذا أتى الجواب " يطلع مؤنسا " قرَّ المعنى في أذهان السامعين ، وثبت في عقولهم ، وهذا أمكن في المعنى ، وآكد في بث صورة الشاعر في عقول السامعين ، وتمكينها وكأنها صورة ماثلة أمام عيونهم .

ولعلك تلحظ أن قول الشاعر :

فأنكرتُها لا البدرُ يَطْلُعُ مُؤنِسا ولا الروضُ يُسليني بِنَفحَةِ طيبِ

ومَا ليلُها إلا سريرةُ حاسدٍ وما صُبحُهُا إلا بياضُ مشيبِ

بمثابة التفصيل لعواصف الزمن في بضع كلمات يعقبها تفصيل غاية في البلاغة ، فأنكر الشاعر على الدنيا أنها أخذت الأحبة ، فلا البدر يطلع مؤنسا للشاعر في وحدته ، ولا الروض والمقصود بها هنا " مجالس العلم " التي كانت تفوح بمسك الموحدين والعلماء المجتهدين ، فيفوح عبير مسك الشيخ محمد الخضر فيها ، وينهل هو – أيضا– من فوح عبير من فيها من العلماء وطلاب العلم .

ومن الملاحظ هنا أن الشاعر قد آثر التعبير بأسلوب الاستعارة في موضعين : فاستعار أولا البدر لوجه زوجته التي كانت تطل عليه في منزله ، بجامع الإشراق والطلاقة في كل ، واستعار الروض ثانيا لمجلس العلم التي كان يجلس فيه قبل مرضه ، ونقله للمستشفى ، وهذا أبلغ في تجسيد هذه المعاني ، وتوطينها في نفوس السامعين ، كما أنها أجود في رسم صورة الشاعر الذي يحن قلبه لما يقربه إلى ربه .

ثم لما ذكر الشاعر تمهيدا لحديثه عن مصاعب الحياة وجد الفرصة سانحة لإيجاز ممتع يلخص فيه أمر الحياة الدنيا فقال : ومَا ليلُها إلا سريرةُ حاسدٍ وما صُبحْهُا إلا بياضُ مشيبِ

فاستخدم أسلوب القصر بالنفي والاستثناء بـــــــــ " ما " و " إلا " في الشطرين معا ، فالحياة بات ليلها من وجهة نظر الشاعر ما هو إلا سريرة حاسد ، أي : شماتة حاسد يكتم ذلك في سريرته ؛ لأنه فقد شبابه ، وألمَّ به المرض والنحول بعدما كان شابا يافعا يملأ علمه المجالس والمحافل العلمية ، فالقصر هنا قصر موصوف على صفة ، فقصر ليل الحياة على كونها سريرة حاسد ، وهو قصر قلب لقلبه حكم السامع ؛ لأن المخاطب يعتقد عكس ما أثبته المتكلم .

بينما قصر الشاعر صبح الحياة على كونه أضحى بياض مشيب ، فضياء الصبح وتباشير الضياء أصبحت عند الشاعر وكأنها علامات الشيب وبياض الكبر التي انتشرت في رأسه ، ولاحت في جبينه .

ولعلك تلحظ أن الشاعر هنا قد عبر بأسلوب التشبيه ليتآلف مع غيره من الأساليب في توثيق المعنى في ذهن السامع ، حيث شبه ليله الذي يمر عليه وهو مريض في المستشفى ، بسريرة حاسد في شدة الظلمة والعتمة ، وشبه صبحه الذي يقضيه على فراش المرض ، ببياض المشيب ، ووجه الشبه هنا ظهور أشياء بيضاء قليلة وسط سواد كالح من كل الجوانب ، وهذا أبلغ في تصوير معاناة الشاعر أثناء مرضه وشدة تألمه ، ومرارة الأيام التي تمر عليه ، وقساوتها على قلبه ، ولعل الشاعر كان واثقا في الله – تعالى – مقبلا على بنفس مطمئنة راضية بقضاء الله مرضية بما عنده ؛ لذا لم يرَ الشاعر الموت مصيبة عظمى ولا طامة كبرى كما فعل غيره من الشعراء فقال :

أَطَلَّ علَيَّ الموتُ من خِلَل الضَّنَا فآنستُ وَجْهَ الموتِ غيرَ كَئيبِ

الشاعر هنا جنح إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية الرائقة ؛ ليجسد لنا بها روعته في تصوير الموت وكأنه إنسان له وجها أطل على الشاعر من ثقب باب الضنا أي : المرض والهزل ، فرأى له وجه غير كئيب ، والاستعارة هنا من الأساليب الناجعة التي استوعبت مشاعر الشاعر وجسدت زفراته الرقيقة المفعمة بنور الله ، فهذه الكلمات التي صاغها الشاعر عن الموت وأن له وجه إنسان غير كئيب كأنها قبس من أنوار الهدى ألقى بها الرحمن في قلبه ، فلم يصور الموت بالأسد الذي ينشب أظفاره ليغتال النفوس كما قال الشاعر :

وإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظفارَها ... أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمةٍ لا تَنْفَعُ [1]

ومن دقائق التعبير هنا أن الشاعر وفق في انتقاء الألفاظ الدالة على تمكن الإيمان في قلبه ، وسيطرت العقيدة السمحة على جوارحه ، وتغللت مبادئ التوحيد في وجدانه ، فآثر التعبير بالفعل المضارع " أطل " للمبالغة في تصويره للموت وكأنه صديق يطلُ عليه في كل لحظة ، يداعب خياله، ويعبث بفؤاده ليذكره بلقاء ربه ، واستعمل الشاعر قوله : " فآنست " للدلالة على استئناس الشاعر وفرحته بالموت ، وكأنه صديق حميم يستأنس به ، وعبر الشاعر بأسلوب الإطناب عن طريق الاحتراس في قوله : " غير كئيب " ؛ لأنه لما ذكر أن الموت كإنسان له وجه ، ربما تسرب إلي ذهن السامع أن وجه الموت وجه بشع كئيب، لكن الشاعر دفع هذا التوهم واجتثه من أصله ، عندما ذكر أن للموت وجها غير كئيب ، وهذا تصوير بارع للحالة الشعورية للشاعر .

ثم ختم الشاعر قصيدته بحكمة وافية لخص فيها مشاعره الذاتية تجاه أمته فقال :

([1]) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وهو من البحر الكامل . ينظر : المفضليات ؛ للمفضل بن محمد الضبي ٤٢٢/١ ، ت / أحمد محمد شاكر ، ط /دار المعارف بالقاهرة ، ط / سادسة .

فلا كانَ لي من عيشٍ أرى فيهِ أُمتي تساسُ بكفيْ غاشمٍ وغريبِ

فالشاعر هنا يحلق بفكره الجميل ، وقريحته الفريدة ، فيخرج لنا درة مشاعره الذاتية في عبارة موجزة ، فتظل حكمة خالدة أبد الدهر تجسد دور كل أزهري غيور على دينه ووطنه وأمته الإسلامية ، مؤكدة أن حلم أبناء الأزهر أن تكون أمتهم حرة أبية عزيزة بأمر الله تساس بأيدي علمائها الأوفياء ، وأبنائها الأعزاء بدين الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – ومن ثم كانت أمنية الشاعر في آخر هذه القصيدة محملة بحلمه الأعظم ، فتمنى الموت دون أن يرى أمته تساس بأيدي محتل غاشم وغريب ، يدنس مقدساتها ، ويقتل رجالها ، ويسوم نساءها وأطفالها سوء العذاب .

وعبر الشاعر هنا بأسلوب النفي الذي أفاد معنى التمني في قوله : " فلا كان لي من عيش .. " ، فالشاعر يتمنى أن يموت ولا يرى هذا الأمر المهين الذي تهان فيه أمته ، وتساق سوقا بأيدي هؤلاء الفجار الذي يحتلون عقولها ، وينهبون ثرواتها .

وآثر الشاعر التعبير بأسلوب الكناية في قوله : " تساس بكفي غاشم وغريب " ؛ للمبالغة في وصف شدة التمكن والقدرة ، وإحكام المحتل لقبضته على هذه الأمة ، الذي رغب الشاعر في أن لا تكون له فيها عيش ، والشاعر هنا وفق انتقاء التعبير بأسلوب الكناية ، وإيثاره للوصفين " غاشم " و " غريب " ؛ لأنهما أبلغ في التعبير ، وأمكن في تصوير غشم هذا المحتل ، وعدم احترامه للقيم الإنسانية ، ومن ثم ارتكب كل المحرمات من قتل وتخريب ، وسفك للدماء ، وهتك للأعراض ، وإهلاك للحرث والنسل ، وسعي للإفساد في الأرض ، وعبر بقوله : " غريب " ؛ للمبالغة في تصوير حاله وتفظيع أمره ، فهو غريب من أرض أخرى ، هجم على بلاد ليست بلاده ، لينهب ثروات أهلها ، ويقتل رجالها وأطفالها ويستحي نساءها

منتهكا كل الأعراف والقيم الإنسانية ، وجمع الشاعر بين هذين الوصفين ؛ ليؤكد على قباحة أفعال هذا المحتل الذي لم يخضع لدين ، ولم يركن لخلق ، بل نصب نفسه حاكما على الضعفاء من الناس ، فاستباح لنفسه كل فعل شيء .

وجاءت هذه القصيدة على بحر" الطويل " ؛ لتلاءم حالة المرض الذي ألم بالشاعر ، فأفقده شبابه ، وأضنى جسده ، ولتطول فتشمل تصوير كل خلجاته النفسية ، لا سيما أنه رأي الموت أمامه وأن له وجها غير كئيب ، وكأن هذا البحر تعبير عن طول أمل الشاعر في عطاء ربه ، ورغبته في لقائه ، وجاء الروي في القصيدة على حرف " الباء " بما تمتاز به انفتاح للشفتين ، للدلالة على تطلعه للخروج من الدنيا ، ومن حافة الضيق إلى أوسع الطريق ، وهذا يناسب فخره بنفسه وذاته التي تتطلع إلى ما عند الله ، فترجو لقاءه بنفس راضية مرضية .

المبحث الثالث : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن آماله وأحلامه :

برع الشيخ محمد الخضر في التعبير عن ذاته من خلال أشعاره التي صور فيها آماله وأحلامه ، فكانت آمال الشاعر دوما متعلقة بفضائل الإسلام وفلسفته ، وأحلامه كانت صدى لأحلام شيخ جليل تخلق بأخلاق الإسلام ، فكان القرآن الكريم والسنة النبوية هما العاملان الرئيسان في تحريك خلجاته النفسية ، ومن ثم اشتمل ديوانه على كثير من آماله وأحلامه .. لكن وقع اختياري على نموذج فريد صور فيه الشاعر نفسه وذاته في أسلوب بلاغي بديع ينم عن عمق شاعريته .

يقول الشاعر متحدثا عن آمله في اتخاذ صديق صادق :

أَيَـــــصْفو لي مِنَ الأصحابِ خِلٌّ ... لـــــــــهُ أدبٌ أرقُ من السُّلافِ

أهيمُ بهِ الحياةَ وما هُيامـــــــي ... بغيرِ الألمعيَّةِ والعفـــــــــافِ

يناقشُ أو يخالفُ بعضـــــَ رأيي ... فأبهجُ بالنقاشِ وبالخـــــــلافِ

وأُوثرُ أن أكونَ مُحِـــــــــبَّ حرٌّ ... فَخُرُّ الرَّأْيِ أمثلُ من تُصافي [1] .

يصور لنا الشاعر هنا أمله في أن يتخذ خليلا في الحياة ، تجتمع فيه صفات العفة والأدب ولين الجانب ، ولما كان قلب الشاعر مفعما بمعاني الأمل يكاد يفيض نفاجة واقتدرا بهذه الأمنية ، عبر بأسلوب الاستفهام الذي أفاد معنى التمني في قوله : " أيصفو لي من الأصحاب خِلٌّ " ، فالشاعر يتمنى أن يكون له صديق حميم تتخلل محبته في قلبه ، ويسكن فؤاده ؛ لذا عبر بأداة النداء " الهمزة " للدلالة على قرب المنادى وأنه من شدة لهفة الشاعر في إيجاده صار كأنه موجود بالفعل ، وعبر بالفعل المضارع " يصفو " ؛ للدلة على رغبته الجامحة في دوام هذا الصفاء

([1]) ديوانه صـ ١٤٥ ، وما بعدها ، والقصيدة من البحر الوافر ، وهي بعنوان الصداقة وحرية الرأي .

واستمراره ؛ لأنه من الندرة بمكان أن تقر طباع الصديق مع صديقه ، ولا يعكر صفوها مرور الأيام وتعاقب الأحداث ، فسلوكيات الناس يعبث بها الزمن ، وتغيرها وقائع الأزمان ، ولما كان الشاعر يجنح بخياله في عالم غياهب الدهر صور لنا صفات هذا الصديق المأمول فقال : " له أدب أرق من السلاف " ، فوصفه أولا بأن له " أدب " ؛ لأن الأدب جوهر الصداقة وأصل دوامها ، وجاء بالاسم هنا منكرا " أدب " ؛ للدلالة على كثرة أدب هذا الصديق ، وتنوع مأثره ، فالشاعر لا يبغي أي صديق وإنما يأمل أن يرزقه الله أعظم الأصدقاء وأعلاهم خلقا ، ومن ثم تطلب السياق وصفا رائقا لهذا الصديق فوصفه ثانيا بقوله : " أرق من السلاف " ، أي : أرق وأندى من العصير الذي يسيل من العنب قبل أن يعصر ؛ وذلك لأن العصير الذي يسيل قبل العصر يكون مشتملا على الحلاوة مع الروعة في الطعم ، فعبر الشاعر بأسلوب التشبيه الضمني ؛ حيث شبه الشاعر رقة طبع ودماثة حلق هذا الصديق المؤدب التي يأمل أن يكون صديقه ، بأنه أرق من عصير العنب الذي يسيل منه قبل أن يعصر ، ووجه الشبه هنا الرقة والليونة والحلاوة ، وسلامة الطبع ، وهذا أنجع في التعبير وأوفى بالغرض .

ولعلك تلحظ أن هذا التعبير : " أرق من السلاف " ، قد اشتمل على أسلوب بديعي فذ ، وهو مناسبة الألفاظ للمعاني ، فجاءت ألفاظ التشبيه الضمني هنا مناسبة اتم المناسبة للمعنى المراد ، فالرقة والحلاوة والاتزان موجودة في عصير العنب قبل أن يعصر ، ولندرته جعل شفاء للعليل ؛ لما فيه مكونات طيبة تشفى من بعض الأسقام بإذن الرحمن ، وهذا ما يأمل الشاعر أن يجده في أخلاق صديقه ، وهذا أبعث على بيان مدى قدرة الشاعر على انتقاء الألفاظ والأساليب المناسبة للمعنى الذي يطمح إليه .

فهب أن الشاعر مثلا ، لم يعبر بقوله : " أرق " وقال : " أحلى " مثلا ، لا شك

أن كلمة " أرق " أنسب لأنها تشتمل على رقة وتمايز هذا العصير ، فلا هو حلو المذاق شديد الحلاوة ، ولم يوجود ما يعكر صفو حلاوته ، أما كلمة " أحلى " فتشي برغبة شديدة في أن يكون هذا الصديق أحلى من السلاف ، وهذا لا يناسب مناط القصيدة ، ولا يتناغم مع مراد الشاعر فى أمله أن يكون له صديق متزن نفسيا .

ولك أن تتصور ماذا سيكون حال المعنى معك ، لو حذف الشاعر قوله : " أرق " وأتى " بالكاف " فقال مثلا : " له أدب كالسلاف " ؛ لا شك أن المعنى سيفقد كثيرا من قيمته ، ويصير حينئذ إلي كلام غث بارد لا يناسب مطلع القصيدة ، ولا يفي بالمعنى الذي يطمح إليه الشاعر .

ومن ثم آثر الشاعر التعبير بـــــــ " أفعل التفضيل "في قوله : " أرق " ؛ للمبالغة في وصف شدة تعلق أمله بهذا الصديق الذي جمعت له هذه الأخلاق الكريمة .

ولعل الشاعر لما كانت أحلامه تكمن في رغبته في إيجاد هذا الصديق الحميم الذي وجد نفسه وذاته ، راح يجسد لنا مشاعره الذاتية وهيامه بهذا الصديق فقال :

أهيمُ بهِ الحياةَ وما هُيامـــــي بغيرِ الألمعيَّةِ والعفـــــافِ

وعبر بالأسلوب الخبري لأنه أبلغ ملامسة لخواطر السامعين ،وعبر بالجملة الفعلية " أهيم به " ، وانتقى الفعل المضارع ؛ للدلالة على استمرار هيامه بخلق هذا الصديق ، ولعلك تسأل لماذا هام قلب الشاعر بهذا الصديق ؟ والجواب : في قوله : " وما هيامي بغير الألمعية والعفاف " ،أي : أن سبب هيام الشاعر بصديقه إنما لأجل تفرده في الذكاء والعفة ، وتخلقه بأخلاق القرآن ، ولعلك تلحظ أن إيثار التعبير بهذا الأسلوب أنسب للسياق وأكمل للمقام .

ثم يواصل الشاعر الحديث عن أحلامه في تصوير أخلاق هذا الصديق الذي يحلم ، فيمتطى الأسلوب الخبري لما يمتاز به من هدوء ورقة وتهيئة لأذهان السامعين فقال :

يناقشُ أو يخالفُ بعضَ رأيي فأبهجُ بالنقاشِ وبالخلافِ

هذا البيت هو بيت القصيد في المقطوعة الشعرية ، فالشاعر يبتهج بخصال هذا الصديق لندرتها ، فهو يناقش معه ويحاوره في أدب جم ، ويخالفه في الرأي في بعض المسائل العلمية لكنه لا يبرح الود والصفو والصفح ، ومن ثم كانت هذه الصفات مثار ابتهاج وإعجاب من الشاعر ، ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر عبر بأسلوب الالتفات ، فانتقل الشاعر من الغيبة في قوله : " يناقش أو يخالف بعض رأيي " إلى التكلم في قوله : " فأبهج بالنقاش وبالخلاف " ، ووجه حسن الالتفات هنا أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه ، من اجرائه على أسلوب واحد [1] .

ولعلك تلمس كيف استطاع الشاعر تصوير ذاته من خلال هذه الأبيات ، ومن ثمة وجد الفرصة سانحة للحديث عن نفسه ، فبعدما صور لنا صورة تهفو لها القلوب صورة صديق تعلو أخلاقه كل لحظة علوا يلفت الأنظار ، آثر تصوير نفسه فقال :" وأوثر أن أكون محب حر " ، الشاعر يؤثر أن يكون له حبيب حر لا يخشى في الحق لومة لائم ، لا تغره الدنيا بزخرفها ، فيدوم وده ، وتصفو النفس بلقائه ؛ لأنه حر أصيل ، وعبر الشاعر بالجملة الفعلية : " وأوثر أن أكون محب حر " ؛ للدلة استمرار تنامى حلم الشاعر في أن يكون له حبيب حر يصفو ولا يكدر ، ولعله وجد في أحمد تيمور باشا هذه الخصال ، فأوصى أن يدفن بجانبه .

ومن دقائق التعبير هنا أن الشاعر عبر بفاء السرعة في قوله : " فحر الرأي أمثل من تصافى " ؛للتأكيد على سرعة تعلق القلب ، وتمكن كنه محبته إذا اجتمعت له هذه الخصال ، وعبر بالجملة الاسمية ؛ للدلالة على دوام حبه للحر الأصيل ،

---

(١) ينظر : الإيضاح ٣ /٩١ .

وأنه أثبت من تدوم محبته في القلب ولا تذوب ، ولذلك عبر الشاعر بأفعل التفضيل " أمثل " ؛ للتأكيد على أنه الأجدار بالصداقة ، فكأن دماء الشاعر قد اختلطت بهذا الصديق فصار كأنه نفس الشاعر ، ومرجع ذلك الصبغة الإسلامية الصافية التي صبغ بها الشاعر .

وجاءت هذه المقطوعة الشعرية على بحر " الوافر" ، لتجسد آمال الشاعر ورغبته في صديق يصفو له ، ولا تُكدر الأيام أخلاقه ، ومن ثم كان هذا البحر أنسب في الدلالة على وفرة حسن أخلاق هذا الصديق ــ وغزارة أوصافه حتى جعله الشاعر كأنه صورة لذاته ، وجاء حرف الروي هنا " الفاء " لأنه أعلق بمراد الشاعر في شدة أمله إيجاد هذا الخليل ،واستدامة صداقته لرقته وعذوبة أخلاقه .

المبحث الرابع : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن همومه وآلمه .

كانت نفسية الشاعر الشيخ محمد الخضر سوية صافية لم يعكر صفاءها هوى الدنيا ، وحب التنعم بزهرتها ، وإنما كانت قيم الإسلام ومبادئه هي الشغل الشاغل لقلب الشاعر وعقله ، فحركت وجدانه ، وألهبت شاعريته ، فكانت قريحته تفيض بالفرح والحبور عندما يرتفع شأن الإسلام وتعلو هاماته ، ويشتد حزنه وآلمه عندما تنخفض أعلام الإسلام ، وتنكس راياته .. فذات الشاعر في شعره كانت ذائبة في قيم الإسلام ، تعلو بعلوه ، وتحزن بما أصاب أهله من ضعف أو انكسار .

حزن الشاعر على شعائر الإسلام عندما أدركه العيد في " برلين " :

هَذه طلعةُ الهلالِ وَمـــا لـــي ... لم أجِدْ في الفؤادِ بعضَ انْبساطي

يومُ عيدٍ وما تفتق كَـــــمٌ ... عَنْ أنيسٍ ولا كَسَمِّ الخياطِ

ما تملَّى سَمْعي تهَانِئَ صيغتْ ... في قُلوبٍ موصولةٍ بنِياطي

أينَ جَيرانُنا ، وأينَ المُصلَّى ، ... وخطيبٌ يهدي لِخيرِ صِراطِ

أينِ مِنّي شفيقةُ القلبِ تهُديَ ... دعواتٍ مثلَ الظباءَ عواطي

لو تقاضيتُ في اغترابيَ أَمرا ... نهضتْ هِمتي لهُ ونَشاطي

لأدرتُ العنانَ نحوَ دمشقٍ ... وحمدتُ السُّري على الأشواطِ [1].

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن حزنه الشديد وألمه العميق على انمحاء شعائر الابتهاج بالعيد في أحد البلدان الأوربية ، عندما أدركه العيد في مدينة " برلين " ،

([1]) مناسبة القصيدة : قيلت في " برين " عاصمة دولة " ألمانيا " سنة ١٣٣٣هـــــ ، عندما أدرك الشاعر عيد الفطر هناك .. ديوانه صـــ ١٢٧ ، وما بعدها ، والأبيات من البحر الخفيف ، وهي جزء من قصيدة بعنوان : " العيد في برلين " .

ومن ثم أنشأ هذا القصيدة التي كان مطلعها قوله:

أسوارً منْ عسجدٍ وجمانً تقتنيهِ الحِسانُ في الأقراطِ

أم هلالٌ حفتهُ في ليلةِ العيـــ ـــــــدِ نجومٌ ببهجةٍ واغتباطِ

ومن ينعم النظر في الأبيات السابقة يجد أن الشاعر ، قد عبر بالأسلوب الخبري في قوله : " هذه طلعة الهلال وما لي ... " ؛ لأنه هو الأمكن على تهيئة نفس المتلقي ، وتمهيد قلبه لبث مشاعر الحزن الدفين في نفسه ، لما أصاب الشاعر عندما رأي مشاعر الفرحة غير متواجدة حوله في " برلين " ، ومن ثم أضفى هذا الجو على نفسه حزنا فائقا على قلبه ؛ لأن أصحاب هذه البلدان لا يعظمون شعائر الله ، ولا يعرفون قدر هذا العيد ، ومن الجدير بالذكر أن الشاعر هنا قد استخدم أسلوب الاستعارة المكنية في قوله : "هذه طلعة الهلال " فشبه الهلال بإنسان يطلع من السماء بجامع الظهور والوضوح بعد خفاء ، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو " الطلوع " مثبتا إياه للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، ولا يخفى عليك أثر هذه الاستعارة على تشخيص هذا الحدث وتصويره في قلوب السامعين وكأنه صورة حية تجسد لنا مشهدا عظيما حال ظهور هلال العيد في كبد السماء ، وأوثر التعبير باسم الإشارة " هذه " وهو للقريب مع أن الهلال بعيد عن الشاعر ؛ للدلة على القرب المعنوي فهلال العيد وإن كان في السماء أبعد ، لكنه في قلب الشاعر أقرب وأمكن ، ولما وجد الشاعر قلب السامع متهيئا لتقبل خبره قال : " وما لي لم أجد في الفؤاد بعض انبساطي ؟ " ، فعبر بأسلوب الاستفهام الإنكاري بـــــــــ " ما " فكأن الشاعر ينكر على قلبه هذا الشعور غير المألوف ؛ حيث أنه كان من أشد الفرحين بطلوع هلال العيد لما يحمله من خير وبركة للناس ؛ فالعيد فسحة ربانية للمؤمن يفرح فيه ويسعد ، لكن الشاعر لم يجد في نفسه فسحة انبساط هذه المرة ؛ لأنه يعيش في بلد غريب يعج بمظاهر البهجة والفرحة لكن

ليس بشرائع الدين ، وإنما بمفاتن الحياة وزينة الدنيا ، ثم بين الشاعر أسباب عدم انبساطه بقوله : يومُ عيدٍ وما تفتق كَـــمٌ عَنْ أنيسٍ ولا كَسَمِّ الخياطِ

الشاعر هنا عمد إلى أسلوب التعريف بالإضافة في قوله : " يوم عيد " ؛ للمبالغة في تعظيم هذه اليوم وتشريفه ، لكونه من عظائم الدين ، ومن أجمل أيام الدنيا ، وهذا أنسب للمقام وأعلق بالسياق ، ثم انتقى الشاعر أسلوب الكناية ليتعانق مع أسلوب التعريف بالإضافة للنهوض بهذا المعنى ؛ حيث وقع قوله : " وما تفتق كم عن أنيس ولا كسم الخياط " ، كناية عن عدم خروج أحد من الناس لصلاة العيد ، فلم تخرج الجموع الغفيرة متشوقة فرحة بالعيد كألوان الأزهار كما في بلاد الإسلام ، ومرجع هذا هو عدم إسلام أهل هذه المدينة " برلين " ، فأهلها أبعد عن ادراك شعائر الإسلام لجهلهم بها ، وعبر الشاعر بأداة النفي : " ما " في قوله : " وما تفتق كم " ؛ للدلالة على تناهى الخروج ، فلم يخرج أحد من أهل هذه المدينة احتفاء بالعيد ، وابتهاجا بقدومه كم يفعل المسلمون ، فالمعنى في البيت أتى يوم العيد وما ظهر أحد من أهل الأنس والمحبة ولا لاحت بشائر لظهوره ولو بقدر ضئيل .

وعبر الشاعر بأسلوب التشبيه في قوله : "

.. وما تفتق كَـــــــمٌ عَنْ أنيسٍ ولا كَسَمِّ الخياطِ

حيث شبه تناهى عدم ظهور أحد من أهل الأنس والمحبة والسعي لصلاة العيد ولا لاحت بشائر لظهور هؤلاء ولو بمقدار ضئيل ، بحال ثقب الإبرة " سم الخياط " في الضيق وتناهي الصغر ، أو يكون شبه حال عدم ظهور الأحبة في يوم العيد وعدم وجود بشارات ظهورهم ، بحال عدم تفتح الزهور ولو بمقدار ضئيل ، وهذا أنسب لسياق القصيدة ، ومغزى البيت ؛ لأن قوله : فـــــــ " سم الخياط " راجع إلى حال المشبه وهو قوله : " وما تفتق عن كم " ، والأكمام ما يحيط بالزهرة من

الورق ، وتفتقها انحسارها لتظهر الزهرة ، فعدم تفتق الكم ولو بمقدار صغير كسم الخياط يقابله في المشبه عدم ظهور المحبين ممن يانس بهم الشاعر ولو بقدر ضئيل كرسالة أو بشارة بالقدوم أو نحو ذلك .. وآثر الشاعر التعبير بأداة النفي " لا " في قوله : " ولا كسم خياط " ؛ للمبالغة في نفي خروج أحد من أهل المدينة فرحا بالعيد .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الشاعر قد عبر بأسلوب " الاقتباس " ؛ لأن قوله : " ولا كسم خياط " مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ الأعراف: ٤٠ ، فجعل القرآن الكريم لانتفاء دخول الكافرين الجنة امتدادا مستمرا ، إذ جعل غايته شيئا مستحيلا ، وهو أن يلج الجمل أي : البعير بضخامته في سم الخياط أي : ثقب الإبرة وهو أمر لا يكون أبدا [1] ، كذا حال الشاعر هنا كما وضحت .

واستعمال الشاعر لأسلوب الاقتباس أدل على عمق ثقافته الدينية ، وحفظ كتاب الله ، وتشربه بمعانيه وألفاظه ، وتأصل تلك المعاني في نفسه وفلسفته في الحياة .

ثم أخذ الشاعر يفصل مظاهر عدم انبساطه بقدوم العيد ، فذكر ثانيا أنه لم يجد مهنأ له بالعيد فقال :

ما تملَّى سَمْعي تهَانِئَ صيغتْ في قُلوبٍ موصولةٍ بنِياطي

ولما كانت نفس الشاعر مفعمة بالحزن والألم كرر الشاعر أسلوب النفي بـــــ " ما " " ما تملَّى سمعي " ؛ للمبالغة في انتفاء المهنئين له بالعيد ، فلم يقبل عليه واحد بالتهنئة الحارة التي تخرج من قلب السامع كحبات الدرر المملؤة بالمسك ؛

([1]) تفسير التحرير والتنوير ، للشيخ / الطاهر بن عاشور ١٢٧/٨ ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس " بدون طبعة ولا تاريخ " .

لما فيها صدق وعفاف ، لكونها متصلة بفؤاد كل متكلم منبثقة من رحمة الله تعالى – بعباده .

ثم عمد الشاعر إلى أسلوب الاستفهام المجازي الذي يفيد التحسر والألم لفقده الجيران ومصلى العيد في هذه المناسبة السعيدة ،وكرر الشاعر أسلوب الاستفهام مرتين ؛ ليجسد للسامعين زفراته النفسية الحزينة ، وألمه الممض الذي يعتصر فؤاده فقال : " أين جيراننا ؟ ، وأين المصلى ؟ ، الشاعر هنا يستغرب جزعا حزينا خلو مدينة " برلين " عاصمة ألمانيا من المسلمين ، فلم يجد له فيها جيراننا يستأنس بهم في غربته ، ويشاركوه فرحته بهلال العيد مبتهجين فرحين ، كما أنه نظر حوله فلم يجد مسجدا أو مكانا للصلاة ، ثم تهافت نفسه شوقا فقال : " وخطيب يهدي لخير صراط " ؛ وهذا أبلغ في بيان شدة حسرته وندمه على عدم رؤيته للجيران المصلين ، والخطيب الذي يعظ الناس ويحثهم على اتباع القرآن وسنة النبي العدنان صلى الله عليه وسلم .

ومن براعة الشاعر هنا أنه عمد إلى أسلوب الاستعارة التصريحية الأصلية فاستعار قوله " خير صراط " ، للدين الحق أي : الإسلام " لتشابههما في أن كلا يوصل إلى المطلوب " [1] ، وهذا أبلغ في التعبير ، وأمكن في المعنى ، ثم تعالت نبرة الحزن الدفين في قلب الشاعر ، فتذكر دعاء والدته له في كل يوم عيد ، ومن ثم استخدم أسلوب الاستفهام المجازي في قوله :

أينِ مِنّي شفيقةُ القلبِ تهُديَ دعواتٍ مثلَ الظباءَ عواطي ؟

---

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، تأليف / أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي

صـــــ ٢٦٧ ، ت / د. يوسف الصميلي ، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت " بدون " .

ليفيد إظهار الشوق والحنين لرفيقة دربه ، وشفيقة فؤاده ، فالشاعر هنا يجسد للسامع صورة لذاته وهي تستقبل دعوات والدته وهي كالدرر ، وعبر الشاعر بأسلوب الاستفهام بـــــــــ " أين " لتهيئة قلب السامعين ، وتشويقهم لمعرفة مغزى الاستفهام عن دعوات أمه ، إلهابا لمشاعرهم ، وحثا لهم على التدبر في حسرته وحزنه على عدم وجود شعائر الإسلام في تلك البلدان رغم ما فيها من حضارة وترف ونعيم ، وذلك أبلغ في النظم وأوقع في النفس لأن " الشيء إذا جاء بعد تمهيد له وتقديم ، وبعد تهيئة وتشويق يكون أوقع في النفس وأثبت " [1].

والشاعر رسم لنا لوحة فنية من خلال تلك الألفاظ الرائقة فصور لنا فرحه وسعادته ، بوالداته – رحمها الله – وهي تشدو بالأدعية النبوية له في كل يوم عيد ، ومن ثم أطلق عليها " شفيقة القلب " ؛ لشدة تعلق قلبه به ، وشدة تعلق قلبها بها ، فهي نبع الحنان ، ولما كان الشاعر فرحا مسرورا بهذه الدعوات صور لنا تتابعها وروعتها فلجأ إلي أسلوب التشبيه فشبه تتابع دعوات والدته له يوم العيد بتتابع الظباء في السير بتؤدة وإمعان ؛ للمبالغة في بيان كثرة هذه الدعوات وتنوعها وشمولها ، وسعادته الغامرة بها .

ولعلك تلحظ أن الشاعر قد لهج لسانه في آخر هذه اللوحة الفنية بما يخرجه من هذا الألم والحزن ، فتمنى رجوعه إلى دمشق ليلا وهو في غاية السرعة ، فقال :

لو تقاضيتُ في اغترابيَ أَمرا نهضتْ هِمتي لهُ ونَشــاطي

لأدرتُ العنانَ نحوَ دمشقٍ وحمدتُ السُّري على الأشواطِ

وتلحظ هنا أن الشاعر قد توهجت عنده مشاعر الألم ، وتعالت في قلبه صيحات

---

(١) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه صـــــــ ١٥.

الندم على تواجده في هذه البلدان الخالية من شعائر الإسلام ، فاستعمل أسلوب الشرط بـــــ " لولا " ؛ لتشويق السامعين ، وتمكين المعنى لديهم ، فلولا أن الشاعر قد ضاق به الحال ، وأرغمه المحتل الغاصب على هجران بلاد المشرق العربي ، ما تركها قط ، ولتوجه إلي دمشق مسرعا متلهفا يجرى جرية سريعة حتى يصل إلى غايته .

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر قد عمد إلى أسلوب الكناية في قوله : " وحمدت السُّرى على الأشواط " ؛ للمبالغة عن شدة رغبته الجامحة في مغادرة مدينة " برلين " إلى " دمشق " ، وذلك أبلغ في التعبير عن الضجر النفسي ، والتحزن الشديد والغيرة على شوكة الإسلام ، والاعتزاز بمبادئه .

الخاتمة

الحمد لله المنعم بلا حد ، والصلاة والسلام على أشرف الإنسانية والخلق ، وعلى آله وأصحابه ، ومن سار على نهجه إلي يوم الدين .

أما بعد

فلقد منَّ الله علي بفضله بإتمام هذه الدراسة ، وبعد معايشة مع شعر شيخ من شيوخ الأزهر العظام ، وفارس من فرسان البيان يمكن للقارئ الكريم أن يستخلص مما سبق عدة نتائج منها :

١-دقة الأساليب البلاغية في شعر الشيخ محمد الخضر وتنوعها ، فجاءت جل الأساليب البلاغية المعبر بها عن تصويره لذاته من خلال الأبيات التي شملتها الدراسة ناصعة في البيان ملاءمة للمقام .

٢-أجاد الشيخ في وصف خلجاته النفسية ومشاعره الرائقة في قالب لفظي غاية الرقة والجمال ، فبرع في تصوير مشاعره بصورة فنية تجسد رؤية ثاقبة للحياة من منظور إسلامي ، فقد استطاع الشاعر أن يبين للقارئ عمق شاعريته ، وروعة إبداعه ، ودقة ملكته البلاغية من خلال ألفاظ فصيحة ، ومعان عالية ، وأساليب بلاغية مناسبة لمقاماتها مراعية لحال سامعيها ، فجاءت جل قصائده تعبيرا صادقا عن نفس مفعمة بالإيمان بالله ، واثقة في سعة رحمته ، محاطة بالأمل في نيل رضاه ،والتنعم في جنته ..فلم تسيطر " الأنا " على نفس الشاعر .

٣-دقة الشاعر في وصف مشاعره النفسية ، وأحاسيسه الذاتية ، بصورة مرهفة تأخذ بالألباب ، وتستولي على عقول السامعين ، فجاءت أوصافه لنفسه وذاته، مناسبة للسياق تمام المناسبة ، ملاءمة للمقام ، متوافقة مع الغرض المؤم في كل قصيدة ، مراعية لأحوال المخاطبين ، كاشفة عن الغرض التي سيقت من أجله ، بأسلوب بلاغي راق بديع ، ؛ لذلك لا تجد وصفا لذاته قلقا أو نابيا في موضعه –

على حد علمي – إلا قليلا .

٤- يعتبر شعر الشيخ محمد الخضر سجلا تاريخا حافلا بالمعاني والقيم الإسلامية التي تعد من أعظم جهود علماء الأزهر في إصلاح المجتمع ، والرقي بالإنسانية من خلال توظيف الشعر لتكوين فرد صالح في مجتمع متقدم ، وامتطى الشاعر أساليب البلاغة العربية وألفاظها الذكية لتوصيل رسالته السامية لعقول المستنيرين ، فوفق في ذلك وأبدع .

٥- الذات لدى الشاعر مغيبة ظاهرة ، فهو لا يصفها أو يتحدث عنها حديثا مباشرا ، وإنما حديثه عن ذاته يبثه في أشعاره دون أن يشعر السامع بذلك ، من خلال أغراض أخرى ، كرثائه لوالدته ، أو حديثه عن مرض أحد أصدقائه مثلا .. وهذا أدل على عبقرية الشاعر ، وسمو بلاغته ، ورقة طبعه ، وتمكنه في التصوير ، وبراعته في رسم معالم شخصيته من خلال شعره ، فكانت هذه الثنائية المتضادة السبب الرئيس في كون شخصية الشيخ محمد الخضر الحاضر الغائب في شعره .

وبعد .. فهذا جهدي المتواضع بين يدي القارئ الكريم ، وأرجو من الله – تعالى – قبوله ، وأن يغفر لي ما زل به قلمي أو لساني .. سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل من أنزله

١-الإيضاح في علوم البلاغة ،ت / محمد عبدالمنعم خفاجي ،ط / المكتبة الأزهرية للتراث ، ط / ثالثة ، ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .

٢-جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ،تأليف / أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي ، ت / د. يوسف الصميلي ،الناشر: المكتبة العصرية، بيروت " بدون " .

٣-ديوان خواطر الحياة ؛ للإمام محمد الخضر حسين ، اعتنى به ابن أخيه / المحامي على الرضا الحسيني ، طبعة دار النوادر ، سورية ، الطبعة الأولى ، ١٤٣١هـ ، ٢٠١٠م .

٤-كتاب دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه / أبو فهر محمود محمد شاكر ، ط / خامسة ١٤٢٤هـ ، ٢٠٠٤م .

٥--لسان العرب ،لابن منظور ٣ /١٤٧٨ ، ط / دار المعارف ، القاهرة .

٥- معجم مقاييس اللغة ، لابن فاس ، ت / محمد عبدالسلام هارون ، ط / دار الفكر ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٩٧م

٧-معجم الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، ت / محمد إبراهيم سليم ، ط /دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٨-من بلاغة القرآن " ، تأليف / أحمد أحمد بدوي ، ط / دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٩-المفضليات ؛ للمفضل بن محمد الضبي ، ت / أحمد محمد شاكر ، ط /دار المعارف بالقاهرة ، ط / سادسة

١٠-المعجم المفصل في الأدب ، إعداد الدكتور / محمد التونجي ، ط / دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٩هـــــ ، ١٩٩٩ م .
١١-الصورة الأدبية ، د / مصطفى ناصف ، مكتبة مصر بالقاهرة ، ١٩٥٨م .
١٢-الاتجاه الوجداني في الشعر المعاصر ، د / عبدالقادر القط صـــــ ، مكتبة الشباب ١٩٧٨ م .
١٤-التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه ، للدكتور / بسيوني عبدالفتاح فيود ، ط / مكتبة الحسين الإسلامية ، ط / أولى ١٤١٤هـــ ، ١٩٩٣م .
الرسائل العلمية والمجلات :
١-التصوير الفني في شعر عدي بن الرقاع العاملي ، رسالة " ماجستير " في البلاغة والنقد ، إعداد / د / مريم بنت عواض ... إشراف / د . يوسف بن عبدالله الأنصاري ٢٠٠١م ، جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية .
٢-مجلة الأزهر في ألف عام ، تأليف الدكتور / محمد عبدالمنعم خفاجي ، والدكتور / على على صبح ، ط / المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ، الطبعة / الأولى ، ٢٠١٢م ، ١٤٢٣هـــ ،
٣-الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم السلفي بحق ، رابطة العلماء السوريين ، مقال على شبكة المعلومات العنكبوتية " الانترنت " .

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	٩١٤
مقدمة	٩١٥
التمهيد	٩٢٠
المبحث الأول : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن افتخاره بنفسه .	٩٢٧
المبحث الثاني : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن نفسه أثناء مرضه	٩٤٩
المبحث الثالث : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن آماله وأحلامه	٩٥٨
المبحث الرابع : تصوير الذات في سياق حديث الشاعر عن همومه وآلمه	٩٦٣
الخاتمة	٩٧٠
المصادر والمراجع	٩٧٢
فهرس الموضوعات	٩٧٤